

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

يرد الاشتراك عن سنة

٣٠ في مصر والسودان

٥٠ في الممالك الأخرى

١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦

القبة حصر - القاهرة

تليفون ٤٣٩٠ ، ٥٣٥٥

الجمهورية

مجلة أسبوعية للتفصيل والتاريخ

نصدر مؤقلاً في أول كل شهر رنى نصف

السنة الأولى

١٥ فبراير سنة ١٩٣٧

العدد الثمانى

والأناقة الفريزية ،
والذهن المتصرف الرن ،
فهى التى تجعل من
سواسية بنات الشعب
سيدات وعوائل

كان الألم باح عليها
عنيفاً كلما شمعت بأنها
خلقت للنعيم والتعرف ،
وهى إنما تعيش فى هذا
المسكن الحقير بين هذه

الحليّة

La parure

للمطابخ الفرنسية جى رى موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

كانت من أوائك
الفتيات الأنبيات
الرشيدات اللاتى يحسن
ولادتهن فى أسرة من
أسر الموظفين خطأ من
أخطاء القدر . لم يكن
لديها صديق يحقق
الزواج السعيد ، ولا
رجاء يضمن العيش
الراغيد ، ولا وسيلة

الجدران العاطلة ، والمقاعد الحائلة ، والقماش الزرى .
كانت هذه الأشياء التى لا تظن إليها امرأة
أخرى فى طبقها ترمض نفسها بالألم ، وتوقد
صدرها بالغضب . وكان منظر الخادمة الصغيرة
البريتونية التى تقوم على تدبير بيتها التواضع ، توقظ
فى قلبها الحسرات اللاذعة والأحلام الحائرة . كانت
تحلم بالأواوين الصامتة تدبجها الطنافس الشرقية ،
ونضيفها المصاييح البرتية ، وبالحادمين الفارحين فى
المرابيل القصيرة ، برقد كلام فى المقعد الواسع .

تكشفها للناس فتعرق وتفسهم ونحب ، وتزوج
من رجل غنى سرى أمل ؛ فتركت قيادها للحظ
فزوجها بموظف صغير من موظفى وزارة المعارف
العمومية

كانت بسيطة المنسدام لأنها لم تجد زينتها ،
وكانت ممذبة النفس لأنها لم تمايش طبقها ؛
والنساء ليس لهن طبقة ولا جنس ، وإنما يقوم لهن
الجمال والظرف والفتنة مقام الأصل والأمرة ، فلا
ترى فبين من تفاوت ولا تبايز إلا بالركة الفطرية ،

وتدهس كما كان يرجو زوجها رمت الدعوة على المائدة في غضب وسخط وهي تقول :

— ماذا تريد أن أصنع بهذه ؟

— والسكنى ظننت يا عزيزتى أنك تسرين بهذا . إنك لا تخرجين أبداً ؛ وهذه فرصة جميلة ، حقاً جميلة : ولقد احتمات في سبيل الحصول على هذه البطاقة مالا تتصورين من الجهد والمشقة . كل الناس يرغبون فيها . كل الرغبة ، ويسعون لها كل السعى . وهم لا يعطون الموظفين منها إلا بقدر . تسرين هناك العالم الرسمى كله

فنظرت إليه نظرة الغضب ثم انفجرت قائلة : ماذا تريد أن أصنع على جسمى في هذه الحفلة ؟ لم يكن الزوج قد فكر في هذا ، ولكنه أحب في حقوت وغممة :

عندك الثوب الذى تذهبين به إلى السرخ . إنه على ما أرى ملائم كل الملازمة ...

ثم أخذته الدهس والتوى عليه الكلام حين رأى وجهه تبكي ، وأبصر دمتين غليظتين تنحدران من زاويتي عينيها إلى زاويتي فمها ؛ وقال في غممة : ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فتحطات على نفسها بالجهد العنيف وأجابته بصوت هادئ وهي تمسح الدمع على خديها :

لا نثنى ، غير أنى لأملك ما أترين به ، ولذلك لا أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة ؛ فأعطت هذه

البطاقة زميلاً من زملائك تكون امرأته أحسن منى جهداً وأتم أهبة . فابتأس الزوج وقال : لننظر في الأمر يا ما تيلد ! كم تكلفنا الزينة البسيطة الملائمة التى تمليك في مثل هذه المناسبة ؟ ففكرت بضع ثوان تحرر الحساب وتتحرى البالغ الذى إذا طلبته لا ينير دهس الموظف الصغير ، ولا يوجب رفض الزوج المقتصد ، ثم أجابت جواب المتردد :

لا أعرف ذلك على وجه الدقة ، وأظن أربعمائة

وكانت تحلم باللهو الفخم بنشيه الديباج القديم ، وبالأثاث الدقيق بحمله الرايش الكريم ، وبالصالون الأنيق المطر بجمل لأحاديث المصر مع أخص الأصدقاء وأنه الكبراء والأدباء ، ممن يشتهى النساء استقبالهم ولما جلست إلى العشاء على المائدة المستديرة والخوان المرّد أمام زوجها ، وقد رفع غطاء الحساء وقال في وجه منبسط ولهجة راضية : « الله ! ما أطيب هذا اللحم ! إنى لم أر أشهى منه ولا ألد ، كانت هى تفكر في الأعشية الناعمة الجامعة ، وفي الأدوات الفضية اللامعة ، وفي نساخ الوشى زين الجدر بصور الأعلام البارزة في التاريخ ، والأطيار الغريبة في غابة من غاب عبقري . كانت تفكر في الألوان الشبهية تقدم في الصحف المجيبة ، وفي اللاطفات الغزلة الملمسة تسمع في بسمه كبسمه أبى الهول ، وهى تأكل لحم السمك المورّد ، أو الدراج المسمن لم تكن تملك زينة ولا حاية ولا شيئاً مما تتبرج به المرأة ، وهى لا تحب إلا ذلك ، ولا تظن نفسها خلقت لغير ذلك . وطالما ودت أن تكون موضع الإعجاب والغبطة ، ومنتجع العيون والأفئدة . وقد كان لها صديقة غنية من رفيقات الدراسة فكانت تذكره أن تزورها ، لأن الألم الممض كان يرافقها وهى عائدة . وربما طأت الأيام الطوال تسفح الدموع الغزار إجابة لدواعى الأسف واليأس والحزن

في ذات مساء عاد زوجها وعلى وجهه سمة الجلال ، وفي يده غلاف عمر بضع ، فقال :

خذى ! هاك شيئاً لك . ثم فُض الغلاف بقوة وأخرج منه بطاقة مطبوعة كتب فيها :

« وزير المعارف العمومية وعقبائه يرجوان السيد (لوازيل) وعقبائه أن يشرفاهما بحضور الحفلة الساهرة التى ستقام في ديوان الوزارة يوم الاثنين ١٨ يناير » . والسكنى بدت أن تنبسط وتعتبط

الأشياء. هوأنا وضراعة أن تظهر في محضر الأعيان ،
يطهر الفقراء . . . واسكن زوجها صاح بها قتلا :
ما أشد غداك اذهبي إلى صدقة تلك السيدة فورسنيته
فاستميري منها بعض الحلى ، قال يندكما من قديم
الصدقة ووثق الملاقة ما يتسع لقل ذلك
فصاحت صبيحة الفرح وقالت : هذا صبيح :

ومن العجب أنه
لم يجر على بالي
وفي صبيحة
الغد ذهبت الى
صدقة لها فقصت
عليها ما هما
وعمها ، فلم تكده
تسمع شكواها
حتى أسرع
الى خزائنها
فأخرجت منها
سندوقاً عريضاً
وفتحته ، ثم
قدمته الى السيدة
لوازيل وهي
تقول : اختاري
ما عجزتني
فوقع بصرها



أول ما وقع على الأساور ، ثم على عقد من اللؤلؤ ،
ثم على صليب بندق من الذهب قد رصعته بالحجارة
يد صناع . . . فخرت على نفسها الحلى في المرأة ، ثم
أخذتها حبرة فلم تقطع العزم على ما تأخذ وما تدع ،
فقال لصدقتها : ألم يعد لديك شيء ، آخر ؟
فأجابها : بلى : انجني . فاني لا أعرف ماذا يعجبك
وعلى حين بغتة وجدت في علبه من الديبا

فراك تبيع في الى هذه الغاية :
اصفر وجهه قليلاً ، لأنه كان قد ادحر هذا المبلغ
بتمامه ليشتري به بندقية بصطاد بها في المصيف مع
بعض الأصدقاء في سهل (التنير) ، ومع ذلك قال لأمراه :
ايكمن : سأنعطيك أربعمائة فراك : فاجتهدي
أن يكون لك منها ثوب جميل

دنا يوم الحفل
وزينة السيدة
لوازيل قد
هينت : ولكنهما
لا تزال كما يظهر
حزينة مبهومة
قائمة . فقال لها
زوجها ذات ليلة :
ماذا تجدين ؟
إنك منذ ثلاثة
أيام في حال
غريبة . . .
فأجابته : إلى
ليجزي نفسي ألا
تكون لي حابة .
فلا أملك لها
يتحلى به النساء

شيئاً من معدن أو حجر : وسأكون أحقر من في
الحفل زينة وهبئة ، وأرى من الخير ألا أذهب إلى
هذه الأمسية . فعقب على قولها بقوله :

تجدين بالزهور الطبيعية . ذلك أجمل شيء .
وأطرفه في هذا الفصل . وبمشرة فراكات تباعين
وردين أو ثلاثاً من أندر أنواع الورد . فلم يند هذا
الكلام على كبدها القريحة وقالت : كلا ، فإن أشد

فقد يصيبك البرد . وسأطلب عربية . ولكنها تصامت عن كلامه وأحدت مسرعة على السلم . فلما سارا في الشارع لم يجدا مركبة فشيا ، وكلا أبصرا على البعد حوزياً صاحبه فلا يقف

أخذاً سبيلهما إلى (السين) هابطين قانطين يقرقان من البرد ، فوجدا بعد لآي على رصيفه مركبة عتيقة من تلك المراكب التي تسير وهي مائة ، ثم لا ترى في باريس إلا تحت الليل كأنها تخرى أن تظهر مباتها في وضع النهار . ركبها إلى دارهم في شارع (الشهداء) ودخلاها حزينين : أما هي فلأنها تنحسر على اقضاء ما كانت فيه ؛ وأما هو فلأنه يتذكر أن من واجبه أن يكون في الوزارة الساعة المأثرة نضت عن كتفها ، أمام المرأة ، الباب التي تدثرت بها حتى تنظر إلى نفسها وهي في مجدها مرة أخيرة . ولم تكذب ليجل اللحظ في جيبها حتى صاحت صيحة منكزة : إنها لم تجد على بحرها تلك القلادة : فأقبل عليها زوجها في نصف ثيابه يسألها ماذا أصابها ، قالت أتت إليه هالمة تقول : أما .. أما .. لا أجد قلادة السيدة فورستيه : فانتفض قائماً يصيح وقد هفا قلبه من الجزع

— ماذا ؟ كيف ؟ لا يمكن أن يكون هذا ! وطفق يبحر في ثنايا الثوب ، وفي طوايا المعطف ، وفي جيوب هذا وذاك ، وفي كل مكان هنا وهناك ، فلم يجدها . فقال الزوج للزوجة : أنت على يقين من أن القلادة كانت في عنقك ساعة تركت المرقص ؟ فأجابته : نعم ، ولقد لمسها بيدي وأنا في دهايز الوزارة . فقال لها : ولكنك لو كنت فقدتها ونحن في الشارع لكنا سمعنا وقعها حين سقطت : فلا بد أن تكون في المركبة . فقالت له : نعم . هذا جائز . فهل تذكر رقم المركبة ؟ فأجابها : كلا وأنت ؟ ألم تلحظها ؟ فقالت : كلا . فرما إليها ورنث إليه وكلاهما لا يملك فؤاده من

الأسود قلادة فاخرة من الماس ، لحقق قلبها حقوق الرغبة الملحة ؛ ثم تناولتها بيد مضطربة وتقلدها على ثوبها المجهز فاذا هي على ما صورت في الخيال ، وما قدرت في الأمل . فسالت صديقها في تردد وفاق : أنستطيعين أن تعيريني هذه القلادة ؟ لا نئي . إلا هذه القلادة : فأجابها صديقها : نعم ولا شك . فأهوت على بحرها قبله في حمية وطرب ثم وات مسرعة بهذا الكثر

أقيمت الحفلة الساهرة ونجحت السيدة لوازيل فكانت أبدع من حضرها من النساء رشاقة ولباقة وبهجة . تدفقت في السرور متأقة متأقة فاسترعت الأنظار ونصبت العيوب ، فتسابق الرجال وبخاصة موظفو مجلس الوزراء إلى السؤال عنها والتعرف إليها والرقص معها . حتى الوزير نفسه فقد أتى إليها باله كانت ترقص في نشوة من الغبطة وفورة من اللذة ، وقد أبحى من ذهنها كل شيء ، فلم تعد تفكر إلا في انتصار جمالها ، وفي مجده انتصارها ، وفي ظل رقيق من ظلال السمادة بسطته عليها التحيات التي قدمت إليها ، والاعجاب الذي أثال عليها ، والريجات التي تيقظت فيها ، والفوز الكامل الذي بهج بسحره فؤاد المرأة

تركت الحفل زهاء الساعة الرابعة من الصباح ، وكان زوجها منذ منتصف الليل قد غلبه النوم فأخذ مرقده في بهو صغير خلا من الناس هو وثلاثة من المدعوين كان نساؤهم لا يزلن بقصفن في نشاط ومرح . فلما عث هي وهو بالانصراف أتى على كتفها الثياب التي أحضرها للخروج ، وهي ثياب متواضعة مبتذلة تتنافر بحمارتها مع أناقة ما تلبس من زينة المرقص . وقد شعرت هي بذلك فأرادت أن تتسأل حتى لا يلحها النساء الآخر وهن يرتدين معاطف الغراء الفاخر . غير أن زوجها اعتاقها قائلاً : انتظري ؛

يعود هو فيشترها منهما بأربعة وثلاثين ألف فرنك إذاهما وجدا القلادة الأولى قبل آخر فبراير كان لوازبل عليك ثمانية عشر ألف فرنك تركها له أبوه ، فلامنص من أن يقترض الباقي . اقترض ألفاً من هذا وحسبته من ذلك ، وخمس ليرات من هنا وثلاثاً من هناك ، كتب على نفسه الصكوك المخرجة ، وأخذ على ذمته المهود المخربة ، وتردد على كل مراب ، واخفاف إلى كل مقرض

عروض آخره عمره للخطر ، وغاصر بامضائه وهو لا يضمن الوفاء بما أذم ؛ وفي حال رجف لها القاب فرقاً مما يتجرعه من هموم المستقبل ، وما ينوفه من بؤس العيش ، وما يحشاه من حرمان الجسم ولوعة القاب ، ذهب يشتري القلادة الجديدة وبضع على منضدة الجوهرى ستة وثلاثين ألف فرنك

ولما أخذت السيدة فورستيه الحلية من السيدة لوازبل قالت لها في هيئة غاضبة ولحجة غائبة : لقد كان ينبغي أن تردى قبل ذلك ، فقد كنت في حاجة إليها ثم رفعت العلية من دون أن تفتحها ، فكففت بذلك صدقتها ما كانت تحشاه . فلقد كانت تقول لنفسها : ماذا عسى أن تظن السيدة فورستيه إذا لحظت أن القلادة غير القلادة ؟ ألا تحسبني أصة ؟

ذافت السيدة لوازبل عيش المعوزين المرير الحشن ، وحملت نفسها من ذلك دفعة واحدة في بسالة وقوة كان لا بد من قضاء هذا الدين الفادح وسد قضيته . انتفعت عن الخادم ، وانتقلت من المنزل ، واستأجرت غرفة على أحد السطوح ، وزاوت الأعمال النايظة في البيت ، وبشرت الأمور البغيضة في المطبخ ، ففست الأطباق ، وأنافت أظافرها الوردية في صدى القدور ودمم الأواني ، (وصبنت) القدر من الأبيضة والأفصة والحرق ونشرها على الحبل ؛ ثم هبطت الشارع في كل صباح اتصعد بالماء وتقف

الجزع . وأخيراً مضى لوازبل فلبس ثيابه وقال : سأرجع في الطريق التي قطعناها على الأقدام فلعلني أجدها . ثم خرج وترك امرأته في ثياب السهرة ، وقد تطارحت من الخور على أحد المقاعد ، لا تشتهي النوم ، ولا تطلب الدفء ، ولا تملك الفكر . ثم عاد في الساعة السابعة من غير أن يجد شيئاً . وما لبث أن ارتد إلى دائرة الشرطة بسجل المفقود ، ثم إلى إدارات الصحف بمان المكافأة ، ثم إلى شركة المربات الصغيرة بنشد المركبة ، ثم إلى كل مكان يهديه إليه بصيص من الأمل

وكانت هي تنتظر طول النهار على حائها الألبية من الذهول والوله . وفي المساء عاد لوازبل سدم الوجه كاسف البال لأنه لم يكتشف شيئاً . ولما أعياء الأمر قال لزوجته : لا بد أن تكتبي إلى صدقتك تخبرنيها أن مشبك القلادة انكسر وأنتك بسبيل أن تصاحبه . ذلك بمطينا المهلة لتتخذ تدبيراً آخر . فكتبت ما أملاه عليها

وفي آخر الأسبوع وقفت آملها على شرف البأس ، وأعلن لوازبل أن لا بد من وسيلة المشتري قلادة بدل القلادة

وفي صباح الغد أخذت علية الحلية وذهباها إلى الجوهرى الذي كتب اسمه عليها فسالاه عنها . فقال بعد أن رجع إلى سجلاته : لست أنا يا سيدتى الذي صنع القلادة ، وإنما صنعت هذه العلية فقط . فذهبا يضطربان في سوق الجواهر ينتقلان من صائع إلى صائع فبسالان ويبحثان حتى وجدا آخر الأمر في دكان من دكاكين (الباليه رويال) قلادة من الماس تشبه في نظرها القلادة المفقودة كل الشبه . . . كان ثمنها أربعين ألف فرنك ولكن الجوهرى رضى أن ينزل عنها بستة وثلاثين ألفاً . فرجوا منه الأبيعهما من أحد قبل ثلاثة أيام ؛ وشرطا عليه أن

عند كل طبقة تنفس الصعداء من التعب ، ولبست
لباس السوق واختافت إلى الفا كمانى والبدا
والفصا وبعلى زراعتها السلة فساوم وتقاوم وتدفع
الفين من كل بارة من نقودها القليلة ، فاذا تصرف الشهر
وجب عليها أن توفى صكا ، وتجدد صكا ، وتطلب مهلة
وكان الزوج يشتغل في الماء بتبيض الحساب
لأاجر ، وفي الليل يسلخ سورا من بعض الأصول
كل صفحة بربع وراك
ودأب الزوجان على هذه الحال عشر سنين ، وفي
نهاية هذه المدة كان قد أدبا الدين كله بسمرة الفاحش
وربحه المركب

وكانت السيدة لوازيل قد أخلقت جيدتها
وبدت في رأسها روائح الشيب . وكان من طول
قيامها بشئون المنزل الفقير أن أصبحت قوية غليظة
جافية . تكاد لا تراها إلا شعثاء الشعر ، حمراء اليد ،
مقبوبة الثوب ، ترفع صوتها في الكلام ، وتغسل
أرض الغرف بالذئب العمر ، ولكنك تراها في بعض
أوقاتها تجلس إلى البافذة حين يجلس زوجها إلى
المكتب ، فتفكر في تلك الأمسية الزاهية ، في تلك
الحالة الساحرة التي كانت هي فيها مبري القلوب ومراد
الأعين . ما الذي كان يحدث وأن هذه الحلية لم تنفد ؟
من يدري ؟ من يدري ؟ إن الحياة غريبة الأطوار
سريعة التقلب . وإن موثك أو حياتك قد يكونان
وهنا بأحقر الأشياء .

وفي ذات أحد من الآحاد بينما كانت ماتيلدا رفة
عن نفسها عناء الأسبوع في رياض الشاترايزيه وقع
بصرها خافة على السيدة فورستنييه ومعها طفل تزهره
وتروحه . وكانت لا تزال رفاة البشرة رائقة
الحسن فتاة الملامح ، فاعتراها لدى مرآها اضطراب
وقلق . أتذهب إليها فتسكناهما ؟ نعم ، ولم لا ؟ لقد أدت
الآن كل ما عليها ، فلم لا تنفضي بكل شيء إليها ؟

دات السيدة لوازيل من صديقتها القديمة
وقالت لها : عمى صباحا يا جان !
ولكن صديقتها أنكرتها ، وأدهشها أن تسمع
امرأة من عرض الطريق تحيها بهذه الألفه ، وتناديها
من غير كلمة ، فقالت مغفمة :

والكن ... سيدتي ... لا بد أن يكون هذا الأمر
قد اشتبه عليك . فقالت لها : كلا : أنا ماتيلدا لوازيل
وساحت السيدة صبيحة الدهس وقالت : أوه !
صديقتي المسكينة ما تليد ! لشد ما تغيرت بمدى !
فقات : نعم ! لقد كادت برحاء الهموم ، وعانيت
بأساء العنس منذ عبت عنك ، وذلك كله بسبك
سببي ؟ وكيف ذلك ؟

— إنك تذكرين ولا شك تلك القلادة
المسببة التي أعمرتني إياها يوم حفلة الوزارة
— نعم ، وبعد ؟
— إنني أضعتها
— وكيف أضعتها وقد رددتها إلي ؟

— لقد رددت إليك قلادة أخرى تشبهها كل
الشبه . وهاتي تلك عشرة أعوام قضيناها في أداء
نعمها . وليس ذلك باليسير علينا كما تعلمين ، فاليوم
خالية والورد ناضب والجهنم قليل . وقد انتهى
الأمس والحمد لله ، وأصبحت على هذه الشدة راضية
معتقة . فقالت السيدة فورستنييه في تودة وبطء :
— أتقولين إنك اشتريت قلادة من المس
بدل قلادتي ؟

— نعم ، ألم تلاحظي ذلك ؟ هه ؟ إنها لا تختلف عنها
في شيء . وكانت شفتاها قد افتترعا عن ابتسامة ثم على
الكبر والسداجة . ولكن السيدة فورستنييه أخذت
يديها في يديها وقالت لها في لهجة الاشفاق والمعجب :
مسكينة يا صديقتي ماتيلدا ! إن قلادتي
كانت كاذبة ! وما كان ثمنها يزيد على ثمانية وراك ...
الزبات

فرقين ، وتدل من الجانبين
على أذنيها المعزقتين من
أسفل ، نتيجة حمل قرط
تقبل في أيام شبابه
وكانت جاراتها
يخاضن دائماً على الأبواب
ولا يبرهن اهتماماً ،

لَيْتَنِي مَا وَلَدْتُ

للكاتب البريطاني لورينس براوند
بتلم الدكتور حسن صادق

— هل (نفغاروزا)

هنا ؟

— نعم . اطرق

الباب بقوة

طرقت (ماراجرازا)

الباب ولم يجيبها أحد ،

جلست القرفصاء على

الدرجات المؤدية إلى عتبة الباب

وبقصد من الوقت كله في أما كنهن يرتفن اللابس
أو يهين البقول للطبخ أو يطارزن ، ولا يكففن
عن الكلام وعن مهمكات في أعمالهن أمام بيوتهن
المنخفضة التي لا ينفذ إليها النور ولا الهواء إلا من
خلال الأبواب . وكانت هذه البيوت الويشة
تستخدم أيضاً حظائر للحيوان ، وأرضها مصنوعة
من الأحجار النائية كأرض الطريق . وإذا وح
إنسان داراً من هذه الدور ، رأى في أحد الأركان
جاراً أو بغلاً يتوجع من جرح أو مرض ، وفي
ركن آخر فراشاً حقيراً تنزأ كم من حوله أنواع
مختلفة من الخضر وغلة الحقول ، كل نوع على شكل
ناووس يستخدم مقعداً للزائرين ، ثم كرسيين
أو ثلاثة من القش ، ثم آلات الزراعة مبعثرة على
الأرض ، وعلى الجدران التي اسودت من كثرة الدخان
الذي يتساعد إليها بعض صور زهيدة النمن لانت
إلى الفن بأية صلة . ويرى السائر في طريق القرية
التي يختلط فيها الدخان الكثيف بالرائحة البهيجة
التصاعدة من حظائر الحيوان ، أطفالاً يلعبون قد
سفت جلودهم أشعة الشمس ، بعضهم عارى الجسد
كما ولدته أمه ، والبعض الآخر مستتر بقميص واحد
كثير الفتوف

كانت هذه المرأة الرزاة تفغى أكثر وفئها في
ذلك المسكن ، نائمة نارة ، وبأكية في السكون الشال
نارة أخرى . وكان السابلة يمرون بها من حين إلى
آخر ، فيلقون في حبرها قطعة زهيدة من المال
أو كسرة من الخبز ، فيقطعون عليها يومها الهادي
أو بكاءها الأليم . وفي تلك الحال تقبل المال أو الخبز
وترسم على صدرها إشارة الصليب ثم تعود ثانية إلى
النوم أو إلى البكاء والأنين

عليها أعمال بالية تهتك من كل جانب ،
أفسدها العرق وأقذار الطرق وذهب بلونها الزمن .
وكانت تغدو في هذه الثياب التداعية وتروح ،
لا تعرف الخلاص منها بوجه ولا حيلة . وكان وجهها
الشاحب المروق قد انتشرت على صفحته التجاعيد
حتى أصبح لا يرى منه غيرها ، وجفونها الحمر
قد شرفت من طول البكاء ، ولكن عيناها احتفظتا
بالصفاء المستبهم الذي يمثل الطفولة العارية من
الذاكرة ولا يتلاءم مع هذه التجاعيد وتلك الجفون
الحمر . وكان الذباب الذي يهيم في الفضاء من حولها
يستطير عينها فلا تشعر به ولا تطارده ، لأنها
تمسة غارقة في همومها طيلة الوقت . ولم يبق في رأسها
إلا القليل من الشعر المشعث قد انفرق من الوسط

في ذلك اليوم الذي طرقت المرأة المسكينة فيه باب ننفاروزا كان الناس يشكهمون عن فئة جديدة من المهاجرين الذين ينوون الرحيل إلى أمريكا في اليوم التالي :

— سيرحل (ساروسكوما) ويترك من خافه امرأة وثلاثة أطفال

— وسيصحبه (فيتوسكورديا) ويهجر أولاده الخمسة الصغار وامرأته وهي حامل

— يقال إن (كارمن رونس) سيأخذ معه ولده ، وهو في الثانية عشرة من عمره وقد بدأ يكسب قوته من عرق جبينه ... أيتها المذراء المقدسة : أليس من المفروض عليه أن يترك هذا الولد لامرأته ؟ كيف تصنع هذه النمسة الآن ؟

— لم أسمع ليللة أمس غير البكاء والمويل في بيت (مينوتريا) ، وابنه الذي عاد من المعسكر منذ قليل يرغب في السفر أيضاً :

سمعت ماراجرازيا المعجوز تلك الأقوال صامتة ، وأدخلت طرف شالها في ثمها لتجس في صدرها الزفرات . ولكن حزنها استبد بدخياتها فسأل من عينها دموعاً سخينة

مضى أربعة عشر عاماً على سفر ولديها إلى أمريكا . ولقد وعدتها العودة إليها بعد أربعة أعوام أو خمسة ، ولكنهما أصابا هناك الفنى والثروة وعلى الأخص أكبرهما سناً ، ونسيا أمهما المعجوز

وفي كل مرة ترحل فيها فئة من أهل (قارنيا) إلى أمريكا ، كانت تقصد ماراجرازيا إلى ننفاروزا وتستكننها خطاباً ثم تسلمه إلى أحد المهاجرين وتصرح إليه أن يحمله إلى أحد ولديها

وفي كل مرة ، أثناء عهد طويل ، كانت تتبع هؤلاء المهاجرين في الطريق ، وهم يحملون غمرارات

وأمتعة ، حتى يبلغوا محطة المدينة المجاورة ، يشيعهم الأبناء ، والأمهات والأخوة والأخوات بالمويل والنسيج . وكانت المرأة المسكينة تحمد بيصرها في عيون الشبان من المهاجرين ، وكل منهم يتصنع البشر والابتهاج ليخفي انفعاله الشديد ويشجع أقرابه الذين يصحبونه

وفي كثير من الأحيان كان يدور بين ماراجرازيا والشبان المهاجرين حوار قصير :

— أيتها المعجوز المحنونة ، لماذا تحدفين في هكذا ؟ أريدن أن نقتلن عيني ؟

— كلا يا بنى ، إلى أحسبك عليهما لأنهما سترهان ولدى الغائبين ! وأستجلفك بالله أن نصف لهما حال الأئمة ، وأن تقول لهما إذا تأخرا أكثر من ذلك فأنهما ان يجداني على قيد الحياة

بينما كان النساء يتحدثن في شأن الذين يرحلون إلى أمريكا في اليوم التالي ، تكلم فجأة رجل شيخ كثر اللحية أغبر الشعر أشعث ، كان إلى تلك اللحظة يصمى إلى الحديث ولا ينطق بكلمة ، وكان مستلقياً على ظهره معرضاً صدره لأشعة الشمس مبتهجاً بتدخين غليونه ، قال هذا الشيخ وقد رفع رأسه المسند إلى حجر وبصق :

لو كنت ملاكاً لحظرت على أى خطاب يرد من أمريكا دخول قرية (قارنيا)

فصرخت إحدى النساء وقالت : ما هذا يا جاكو سيدنا ؟ وكيف تعيش الأمهات والزواجات البائسات إذا انقطع عهن المال والأبناء ؟

فقال الشيخ مغمغماً وقد بصق ثانية : « آه ! نعم : أمن أجل المال الذى يرسلونه ؟ إن الأمهات مرعشات على العمل في البيوت خادمت ، والزواجات

في القرية بلا رجال ، وستندرب النساء على العمل في الحقول فاطمن بالآ »

فأجاب الشيخ بصوته الخشن : « النساء لا يحسن إلا شيئاً واحداً فقط : » ثم بصق فـأنته بصوت مرتفع : « أي شيء يا جاكو »
— يحسن البكاء وشيئاً آخر

— إذن يحسن شيئين ! ولكن انظر إلى أنا . إنني لا أبكي

— إيه : أعرف ذلك جيداً : إنك لم تبكي حتى عند موت زوجك الأول :

— إذا فرضنا وكنت أنا التي سبقته إلى العالم الآخر ، أكان يحجم عن الزواج ثانية ؟ إذن ... أنظر إلى هذه المرأة التي تبكي نيابة عن الناس جميعاً : إنها ماراجرازيا

— لدى هذه العجوز ماء كثير وهي تصبه من عينيها

نحك السامعون من سـخريه جاكو ثم قالت ماراجرازيا وهي تهز رأسها : « لقد فقدت ولدين جميلين فكيف لا أبكيهما ؟ »

فقلت ننفاروزا : نعم فقدت ولدين جميلين يستحقان البكاء ... إنني أوافقك على ذلك . ولكنهما في نعيم هناك ويتركانك هنا تموتين بكاء وجوعاً »
— أنا الأم وليس في استطاعتهما أن يدركا مبالغ ألي

— إذن لماذا تدرفين كل هذه الدموع وتحملين على نفسك هذا الألم الشديد ؟ يقول الناس إنهما فرعا إلى الرحيل فرارا من قسوتك وسوء معاملتك

فصرخت ماراجرازيا وضربت صدرها بيدها وقالت : « أنا ؟ من الذي قال ذلك ؟ »

على الذهاب يعرضهن إلى بورصة الشقاء ! ولكن لماذا لا يروون في رسائلهم شيئاً عن الشر الذي يجدونه هناك ؟ : لماذا لا يكتبون إلا عن وجه الأشياء الحسن فيجيب صغار الأحلام على ذلك بالرحيل ! لم يعد في القرية أيد قوية لفلح الأرض وزرعها : أقفرت القرية إلا من الشيوخ والنساء والأطفال الصغار . والرجال برغم هذه الحالة يواصلون الهجرة ويقبلون عليها إقبالاً مروعاً : »

وفي هذه اللحظة فتحت ننفاروزا بابها ، وكانت سمراء اللون كحيلة الطرف ساحرة اللحظ أرجوانية الشفتين بضرة الجسم رشيقة القوام ، يبدو على هيئتها الفرح والعزة ، وكان على صدرها الجمل شال من القطن أحمر اللون به نقوش على شكل أقمار صفراء ، وفي أذنيها قرط من الذهب كبير الحجم ، وقد جمعت شعرها في مؤخرة الرأس وجماعته على شكل كرة كبيرة ، وحفظته من التشمث بدبوس من الفضة

آمت هذه المرأة بعد عامين من الزواج ثم تزوجت من رجل آخر هجرها منذ خمسة أعوام وسافر إلى أمريكا ، وكان يزورها أحد أغنياء البلد من حين إلى آخر خلصة في ظلام الليل ، ويدخل بينها من الباب الصغير حتى لا يشعر به أحد ، وكان جاراتها الشريقات اللاتي يخشين الله يرمقنها بعين الحقد ويحسدنهما في قلوبهن ، وسبب حقدهن عليهما يرجع إلى اعتقادهن أنها كنيت إلى بعض المهاجرين في أمريكا رسائل بغير إمضاء لتفسد عندهم سمعة نساءهم انتقاماً لنفسها من مهاجرة زوجها الثاني

دنت ننفاروزا من الشيخ وقالت : « من هذا المخلوق الذي يهذي ؟ آه هذا أنت يا جاكو ! صدقتني إذا قلت لك إن أحب الأشياء إلينا أن نظل

— بمض الناس

— يا للخرى : أنا ؟ أبنائي ؟ أما التي ...

فقاطعتها إحدى النساء بقولها : « ما هذا الانفعال ؟ دعها تقول ! ألا ترين أنها تمزح ؟ »

وشحكت ننفاروزا طويلاً ثم أرادت أن تكفر عن مزاحها الأليم فقالت لماراجرازيا بصوت رقيق :

« تكلمي يا جدة واطلبي مني كل ما تريدن »

مدت مارا جرازيا يدها المرتمشة إلى وسطها وأخرجت من حزامها ورقة وغلافا وقدمتهما إلى

ننفاروزا في ضراعة وقالت :

— أنتفضلين على بالكتابة مرة أخرى ؟

— نأى خطاب أ كتنه !

— نعم إذا شئت وتكرمت

عبست ننفاروزا وضافت بهذا الطلب ، ولكنها أدركت أنها إن تجدد السبيل إلى الخلاص

من إلحاح المعجوز ، فدعتها إلى بيتها ، ولم يكن هذا البيت بمثل البيوت الفقيرة التي تجاوره ؛ وكانت

غرفته كبيرة مظلمة قليلاً حين يكون الباب مغلقاً ، ولا ينفذ إليها النور إلا خلال كوة ذات قضبان

حديدية في أعلى الباب ، وأرضها مصنوعة من الآجر وفيها سرير من حديد وصوان للملابس ومنضدة

صغيرة سطحها من الرخام الأبيض . وهذا كل ما استطاعت ننفاروزا الحصول عليه من ربحها

كحائكة في الريف

تناولت القلم ووضعت الورقة على الرخام

واستعدت للكتابة وهي واقفة وقالت :

— تكلمي وأمرعي

— أ كتنى : ولدى المرزبن ، لم تعد عيناى تقويان

على البكا... كتبت ننفاروزا ما أملت عليها وهي تنهد تهدة التعب والمال ، وواصلت المعجوز الاملاء :

لأنهما تتحرقان شوقاً إلى رؤيتكما مرة

أخرى على الأقل ... فتعجبتها ننفاروزا وهي تقول :

« استمرى ، استمرى ... إنك كتبت لهما هذه الكلمات ثلاثين مرة على الأقل ! »

— أ كتنى على كل حال . إنها الحقيقة يا عزيزتى ،

وأنت ترين جيداً مبلغ ألى ... أ كتنى : ولدى المرزبن ...

— أمن جديد ؟

— كلا ... سأملئ شيئاً آخر ... لقد فكرت

في ذلك الليل كله . إسمى : ولدى المرزبن ، أمكا المسكينة تمعدكا وتنقسم لكما ... أ كتنى ما أملئ ...

تمعدكا وتنقسم لكما أمام الله أنكما إذا رجعتما إلى (قارنيا) فإنها تهب لكما بيتها وهي على قيد الحياة

وهنا انفجرت ننفاروزا ضاحكة وقالت :

« بيتك الخالى ؟ وماذا يصنعان به وهما الآن في خفض من العيش ؟ ماذا يصنعان بجدره الأربعة

المصنوعة من القش والطين ؟ »

— أ كتنى على كل حال : أربعة أحجار في

الوطن خير من مملكة في ناحية أخرى ... أ كتنى : كتبت ما أملت . هل تريدن إضافة شيء

آخر إلى الخطاب ؟

— نعم : أمكا المسكينة أدركها الشقاء وهي

تقصقض من قسوة البرد ، وتروم شراء ثوب ولا تستطيع ، فجودا عليها بخمسة ليرات على الأقل ...

فقالت ننفاروزا : وهي تجفف المداد وتضع

الورقة في الغلاف : « قول جميل . لقد كتبت كل شيء »

— هل وضحت جيداً هذه الجملة : جودا عليها

بخمسة ليرات ؟

— وضحت كل شيء

« أيها الأبناء ، كيف تطاوعكم قلوبكم على الرحيل ؟
إنكم تمدون بالرجوع ولا تبترون بوعدكم ... آه !
أيها الأمهات البائسات إيا كن والثقة بعودهم !
إن أولادكم كولدى ، لن يعودوا أبداً »

ولمها كذلك إذ سمعت فجأة وقع قدمين يرن
في الزقاق ، فوقفت تحت أحد المصابيح وتساءلت
من عساه يكون هذا الشخص ؟ ولما دنا منها عرفت
أنه طبيب القرية الجديد الذى بقل إنه سينقل
قريباً ، لا لأنه سيميل فى أداء واجبه ، ولكن لأن
أغنياء البلد يفضونه على النقيض من الفقراء .
وكان هذا الطبيب فى زهرة شبابه ، ولكنه كان
شيخاً بتجربته وعلمه ؛ وحين كان يتكلم فى جمع
من الناس كانوا يصغون إليه مشدوهين مأخوذين
ببلاغته وندقة ؛ ولم يكن له أم تحزن عليه إذا رحل
إلى أمريكا كما كان يشاع عنه

وقيل أن يباع مكان ماراجرازيا بوضع خطوات
قالت ضارعة : « سيدى الطبيب ! أسمع بأن
تؤدى إلى معروف كبير ؟ » فانزعج الطبيب من
الصوت المباع ، ثم وقف تحت المصباح وقال
بصوت مرتفع : « من المتكلم ؟ آه ! هذا أنت ... »
وذكر فى الحال أنه رأى هذه الحرق البالية عدة
مرات على أبواب البيوت ؛ ولما هذا ما ألم به من
الفرع ، قالت له :

أنتفضل على بقراءة هذا الخطاب الذى
سأرسله إلى ولدى ؟

— سأحاول ذلك إذا استطعت فى هذا الضوء
الضعيف

ثم لبس نظاره وأخرجت ماراجرازيا الخطاب
من حزامها وناولته إياه ، وانتظرت أن يعيد على
سمعها الجمل التى أماتها على تنفاروزا

— حقاً ؟

— آوه ! قلت نعم !

— يا ابنتى إظهري قلباً من الصبر مع عجوز
مسكينة ! ماذا تنتظرين من إلهاء مثلى ؟ ! فليكا فثلك
الله والمذراء !

تناولت الخطاب ووضعت فى حزامها ، وأرادت
أن تأمن عليه ابن مينوتزيا ليحمله إلى ولديها ،
فغادرت بيت تنفاروزا وأخذت ستمها إلى بيته

أسدل الليل سدوله ودخلت النساء بيوتهن ،
وأغلقت جميع الأبواب إلا قليلاً ، وأقهرت الأزقة
الضيقة من السابطة ولم يبق فيها غير رجل واحد
يحمل سلماً على كتفه ، يسير خلال القرية يشعل
مصابيحها القليلة المبهمة ذات الضوء الضعيف
المهتر ، الذى يحمل سكون الأزقة الشامل حزناً
رهيباً ثقيل على النفس

وكانت ماراجرازيا أثناء سيرها تضغط بأحدى
يديها على الخطاب الموضوع فى حزامها ، كأنها
تريد أن تنقل إلى قطعة الورق جزءاً من حرارة
الأمومة ، وتحك بيدها كتفها تارة ورأسها تارة
أخرى . وكانت كلما كتبت خطاباً غمرها الأمل
الكبير واعتقدت أن سيؤثر فى ولديها ، ويأتى
بهما إليها

ولكنها فى هذه المرة لم تكن راضية ولا مطمئنة
إلى الخطاب ، لأنها رأت تنفاروزا تكتبه فى عجلة
شديدة ، واعتقدت أنها لم تكتب الجملة الخاصة
بالخمس قررات التى طالبها لشراء نوب بقمها لير الشتاء
وأثناء مرورها بالأبواب المغلقة ، بلغ سمعها
صرخات الأمهات اللاتى يكنين رحيل أولادهن
المقبل ، فقالت وهى تضغط على الخطاب بقوة :

لو كانا تساما خطاباً واحداً من خطاباتها الكثيرة
لعادا إليها طائرين على أجنحة الشوق والحزن
ولسكى بطيب الطيب خاطرها وعدّها بأن
يكتب بيده خطاباً مطولاً لولديها في صباح اليوم
التالي ، ثم قال : « خلى عنك اليأس واذهي الآن
إلى النوم والراحة ، وغداً صباحاً أنتظرك في بيتي
لتحقيق رغبتك » ثم تركها وسار في طريقه

كيف تنام هذه الأم المذبة أو نحن إلى الراحة ؟
عاد الطيب بعد ساعتين من تلك الجهة نفسها فوجد
ماراجرازيا في مكانها الذي تركها فيه جالسة القرفصاء
تحت ضوء الصباح وهي تبكي وتتململ ، فأخذ عليها
عملها الجنوني وأرغمها على النهوض ، وطاب إليها
أن تذهب إلى بيتها في الحال . ثم سألتها :

— أين تقيمين ؟

— آه ! ياسيدي الطيب ، عندي كوخ في
الجهة المنخفضة من القرية . لقد رجوت من هذه
المرأة المخادعة أن تكتب إلى ولدي أني أرسل لها عنه
أثناء حياتي إذا قبلا العودة إلى وطنهما ، فضحكت
ملء شديها وقالت : ماذا يصنعان بأربعة جدر
مصنوعة من القش والطين ؟ ... ولسكني ...

— حسن ، حسن . اذهبي ونامي ، وفي الغد
إن نفعل الكلام عن الكوخ في الخطاب . تعالى
سأصحبك

بارك الله فيك ياسيدي الطيب . ولكن ماذا
تقول ؟ ستصحبني ؟ إذن سر أُمّاي لأنني عجوز ولا
أستطيع السير إلا ببطء شديد

فلم يسع الطيب إلا أن يتمنى لها ايلاً سميحاً
ويتركها ؛ فتبعته في خطى ضعيفة متناقلة . ولما
بلغت الباب الذي رآه يدخل منه ، وقفت وغطت
رأسها وصدرها بشالها ثم جلست على السلم المؤدى

ولكن الطيب لم يقرأ ، إما لأنه لم ير جيداً
وإما لأنه عجز عن قراءة الخط . ثم شرع يذوق الورقة
من عينيّه ثم يبعدها قليلاً ليستثمر جيداً نور
المصباح ، وبعد وقت قصير طال على المرأة المسكينة
سألها : « ماهذا ؟ » فسأته ماراجرازيا بدورها في
خجل وتواضع : « ألا تستطيع قراءته ؟ » فضحكت
الطبيب وقال : « ليس في الورقة كلمة واحدة
مكتوبة ، ولكن فيها أربع خطوط في تعارج
صبيانية : انظري ؟ »

فصاحت العجوز مبهوتة : « كيف ؟ »
— انظري وأنعمي النظر . لم يكتب فيها كلمة
— أجاز هذا ؟ وكيف وقع ، مع أني أُمّليته
على نفاروزا كلمة كلمة ، ورأيتهما تكتب :

فهز الطيب كتفيه وقال : « لقد تظاهرت
بأنها تكتب »

جدت ماراجرازيا في مكانها ثم ضربت صدرها
بيدها وقالت في ألم شديد : « آه ! الخائنة ! لماذا
تخدعني وتسخر من عواطفني ؟ الآن عرفت لماذا
لا يحجب ولداي على رسائي ! إنها لم تكتب قط
ما كنت أُمّليه عليها ... عرفت السبب ! إذن
ولداي لا يعرفان شدة عذابي ! لا يعرفان أني أموت
من أجهلها ! رب كيف يحرقو إنسان على خيانة أم
عجوز مسكينة مثلي ؟ يا للعار ! »

نال ألم المرأة من نفس الطيب مثلاً كبيراً ،
واجتهد في أن يهدي قليلاً من غضبها ويأسها ،
وسألها عن نفاروزا أين تقيم ليوجه إليها في اليوم
التالي ما تستحق من اللوم . ولكن المرأة كانت لاهية
عنه بالتفكير في التماس المآذير لولديها البعيدين عنها ،
وشعرت في تلك اللحظة بوخز الضمير الأليم لأنها
اتهمتها أعواماً طويلاً بغير حق ، واعتقدت أنهما

الى عتبة الباب في انتظار طلوع النهار

وعند بزوغ الفجر ، استيقظ الطبيب كمادته
للقيام بزيارة المرضى . ولما فتح الباب سقطت
ماراجرازيا الى الخلف عند قدميه لأنها كانت
مستغرقة في النوم وقد أسندت ظهرها الى الباب
عجب أشد العجب وقال : « أوه ! لقد أسأت
الى نفسك جد الاساءة » فأجابته وهي تحاول
النهوض : « ساعني ياسيدى »

— هل قضيت الليل في مكانك هذا ؟

— نعم ياسيدى . اطمئن بالأفقديت ذلك .
كيف أستطيع أن أواشى نفسي وأتسى خيانة هذه
المرأة الخبيثة ؟ سأفناهما ياسيدى . كان في استطاعتها
أن ترفض الكتابة في صراحة وأن تقول إن طابى
يبحث في نفسها الضيق والملل فأذهب الى شخص
آخر ... أذهب الى رجل طيب القاب مثلك ...

— نعم . انتظري هنا قليلا . سأزور المرأة

التي خدعتك ثم أعود لكتابة الخطاب

وسار متجها نحو الطريق الذى عينته له المجوز
في المساء السابق ، وشامت له المصادفة أن يقابل
تنفاروزا خارجة من بيتها في تلك الساعة دون أن
يعرفها ، وبسألها عن عنوانها . فأجابت وهي
تضحك وقد احمر وجهها : « إني أنا تنفاروزا
ياسيدى الطبيب » ثم دعتة الى دخول البيت

إنها رأت هذا الطبيب الشاب الجميل يجتاز
الزقاق الذى تقيم فيه كثيراً من المرات ، ولكنها
لم تعرف إليه لأنها كانت في أكمل صحة ولم تجرؤ
على إزعاج الرض ؛ فلما رآته يسأل عنها من تلقاء
نفسه ليتحدث إليها ، ظهر على وجهها أمارات
السرور المشوب بالدهشة الشديدة . ولما رآته
مضطرباً عابساً وعرفت الغرض من هذه الزيارة ،

انحنى عليه قليلا في خلاعة ساحرة دون أن تعلم
السبب الحقيقى للألم الذى عنده . ولما استقر به
المقام ، طفق يتحدث وهي تصنى إليه ، ثم قالت في
لهجة الجزع ، وقد أغمضت عينها السحباتين
الخلايتين « عفوا ياسيدى الطبيب . أترعج نفسك
إلى هذا الحد من ، أجل هذه المعجوز المجنونة ؟
الناس جميعاً هنا يعرفونها ولا يفاق أحد منهم نفسه
من جرائمها . سل من تشاء . سيقول لك جميع
الناس إنها مجنونة ، مجنونة حقاً منذ أنت رحل
ولداها إلى أمريكا ، وقد مضى على ذلك أربعة عشر
عاماً . إنها لا تريد أن تصدق أنها تسياها كما
هو الواقع والحقيقة . وهي مصرة على الكتابة
إليهما دائماً ؛ تريد أن ترسل إليهما في كل يوم
خطاباً ، ولكي أدخل على نفسيهما الابتهاج ، كنت
أظاهر بكتابة ما تريد ، وكان المهاجرون إلى أمريكا
يظهرون لها أنهم سيجملون رسائلها إلى ولديها ،
فتظل المرأة غارقة في غرورها . وإذا كنا نجاربها
ونحببها دائماً إلى ما تطلب ، فإن حياتنا تصبح
نكدة صعبة الاحتمال . أنظر إلى يا عزيزى ، إني
أنا أيضاً قد هجرنى زوجى ، وهل تعرف القصة التي
كشفت بها عن خبث طويته ؟ إنه أرسل إلى صورته
مع خلية أمريكية ، وأستطيع أن أطالع عليها فتري
رأسه إلى جانب رأسها ، ويده في يدها هكذا ...
أسمع ؟ هل يدك هكذا ، وهما يسمان
استخفافاً بالذين يطامون على صورتهما ؛ وأقدم لك
أني ضحكت كثيراً حين تسلمت الصورة . آه !
ياسيدى الطبيب ، إن الانسان يبكي الذين يرحلون
ولا يرى لحال الذين يبقون ؛ لقد بكيت أيضاً ؛
وهذا أمر طبي في الأيام الأولى ، ولكنني ثبتت من
بعدها إلى عقلي ... والآن أعيش في أحسن حال .

وكما وجدت فرصة للهو ، لهوت . ينبغي أخذ الحياة كما هي ... »

خفف الطبيب بصره اضطراباً من العطف الذي أظهرته المرأة الجميلة نحوه ثم قال :

— ربما تملكين ما يقوم بحاجتك ، ولكن هذه المعجوز البائسة ...

— من ؟ هي ؟ عندها ما يجعلها تعيش كأميرة عظيمة ولكنها لا تريد

فسألها الطبيب وهو يحدق فيها « كيف ذلك ؟ » ولما رأت نفاروزاً منظر وجهه المشدود

عادت الى الضحك بقوة كاشفة عن ثناياها الخالية ثم قالت :

— نعم إنها لا تريد يا سيدي . لها ابن آخر ، وهو أصغر أبنائها ، يود لو تقيم معه

— ابن آخر ؟ هي ؟

— نعم يا سيدي اسمه روكو . ولكنها لا تريد أن تعرف عنه شيئاً

— ولماذا ؟

— لأنها مجنونة كما قالت لك . إنها تبكي فراق الاثنين الآخرين ألياً ونهاراً ، ولا تقبل من ابنها روكو أى شئ ، رغم توسلاته

زوى الطبيب ما بين عينيه حتى لا تبدو عليه أمارات الدهشة مرة أخرى ، وحتى يخفى اضطرابه الشديد ثم قال :

— ربما لا يحسن هذا الابن معاملتها

— لا أعتقد ذلك . إنه قبيح الخلقة عبوس الوجه دائماً ، ولكنه كريم النفس يرى الخلق . وهو

مجد لا يعرف غير عمله وزوجه وأولاده . إذا أردت أن تراه ، فسر في هذا الطريق المستقيم أمامك ،

تجد على اليمين بعد مسير ربع فرسخ على الأكثر (بيت العمود) كما يسميه الناس . إنه يقيم في هذا

البيت . وله مهنة جميلة تدر عليه خيراً كثيراً .

إذهب اليه وسرى أنى على حق فيما قلت لك

تمض الطبيب وهو أشد ما يكون شوقاً الى رؤية هذا الابن ، ثم قال : « إني ذاهب اليه »

فوضعت نفاروزاً يدها على شعرها ، ومرت الى الطبيب لحظها الساحر وقالت : « أتمنى لك استراحة طيبة ، وأقدم اليك وافر احترامى »

سار الطبيب في طريق ضيقة كثيرة الأحجار

تقوم على جانبيها بعض الدور والأكوخ الحقيمة ، حتى خرج من القرية وأخذ طريقاً آخر وسط

الحقول ، وهو يلقى بنظره غمسة ويسرة ، ويرى الأرض الخافتة التي تنتظر المطر حتى تنعم ، وراءه

أثناء مسيره روح الحزن الذي يجثم على الأرض وقد رحل عنها أكثر سكان القرية ورجلها

آه ! ها هو ذا بيت العمود . وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يجاور عمود معبد روماني قديم لم

يبق منه إلا ركن واحد . ولما دنا الطبيب من البيت وقف أمام الدور وصاح « هو هو ! » حتى

يأتيه من يجنبه خطر السكلاب . فأجابه صبي في العاشرة من عمره عارى القدمين يضرب لون عينيه

الى الخضرة ، وعلى رأسه قبعة من القماش قد ذهبت بلونها أشعة الشمس . سأله الطبيب :

— أهنا كاب يخشى منه ؟

— نعم . ولكنه هادئ ، لا يؤذى أحداً

— هل أنت ابن روكو ؟

— نعم يا سيدي

— وأين والدك ؟

— في الحقل

وكانت أم الصبي جالسة على مقعد حجري أمام البيت تمشط شعر ابنتها الكبرى وهي في الثانية عشرة من عمرها ، وكانت جالسة على مقعد حجري آخر وظهرها إلى أمها ، وفي حجرها طفل رضيع . وكان أمامها طفل آخر يلعب في الأرض وسط الدجاج والدبكة . فقال الطبيب المرأة « أريد أن أتحدث إلى روكو . إلى طبيب القرية الجديد » لم تخر المرأة جواباً لأنها اضطربت ولم تفهم السبب الذي من أجله يريد الطبيب أن يتحدث إلى زوجها . ثم أصاحت قميصها الخشن ونهضت لتقدم إلى الطبيب مقعداً ، ولكنه رفض الجلوس وانحنى على الطفل الذي يلعب في الأرض ، مداعباً ، وجرى الصبي الكبير إلى الحقل لينادي أباه

وبعد لحظات سمع وقع أقدام ثقيلة ، ولج من بين أشجار التين الكثيفة روكو يسير نحو البيت مقوس الظهر والساقين ، ويده في وسطه كمادة الفلاحين في تلك الجهة . وكان زرى الهيئة دميم الخالقة واسع الفم غليظ الشفتين مصفر الوجه مشوه الوجنتين ، وكانت عيناه غائرتين ينبعث منهما ريق لا تطمئن إليه النفس

رفع هذا الرجل يده إلى رأسه ورفع قميصه إلى الخلف علامة التحية وقال للطبيب :

— أقبل يدك ياسيدي . ما الذي أستطيع أدائه ؟

— جئت لأخاطبك في شأن أمك

فاضطرب روكو وسأله في لهفة :

— أليست في صحة تامة ؟

— اطمئن من هذه الناحية . ولكن

الشيخوخة أدركتها كما تعلم وتفتقر إلى العناية ... وكما أسهب الطبيب في الكلام ، ازداد اضطراب روكو ثم قال :

— سيدي الطبيب ، إني خاضع لك في كل ما تحكم به . ولكن إذا كنت قد حضرت خصيصاً لتخاطبني في شأن أمي ، فإني أستاذك في الانصراف إلى عملي

— انتظر ، إني أعرف أنك رجل مد ، وقيل لي إنك على النقيض من ...

— ادخل البيت ياسيدي الطبيب ؛ إنه بيت فقراء ولكنك طبيب ، وقد رأيت كثيراً من أمثاله . أريد أن أريك القراش المدداعا لهذه المعجوز الطيبة القلب ؛ إنها أمي ولا أستطيع أن أطلق عليها اسماً آخر ، ها هي ذى امرأتى وهام أولاد ، أولادى ، إنهم يقرون أنى كنت آبرهم دائماً بخدمتها واحترامها ، كما يخدمون ويحترمون المدراء المقدسة . الأم مقدسة أيضاً ياسيدي الطبيب ؛ لم أهملها ياسيدي ولكنها تفخرني بالخزى أمام الناس وتجعلهم يظنون بي ... من يدري ؟ ربيت ياسيدي عند أقرباء أبى ونشأت بينهم ، وما كان ينبغي لى أن أحترمها كما لم لأنها كانت تعاملنى بقسوة وخشونة ، ولكنى مع ذلك أحترمها دائماً وأشفق عليها . ولما رحل ولداها إلى أمريكا ، رجوت منها أن تقيم معى وأن تكون سيدة البيت ، ولكنها رفضت رجائى وفضلت الاستجداء في الطرق وإغراق في المار ؛ وأقسم لك أنى إذا رأيت أحد ولديها قد عاد إلى فارتيا فإنى سأقتله انتقاماً لنفسى من هذا المار ومن الآلام التى تحملتها طيلة أربعة عشر عاماً ؛ سأقتله

ثم التفت إلى المرأة وأولادها وقال : « فلتكن مشيئة الله ! »

عاد الطبيب إلى بيته وهو يفكر في تفسير هذه الحال الغريبة التي آلمت قلبه ؛ وكانت مارا جرازيا جالسة على عتبة الباب ، فدعاها إلى الدخول وقال لها بصوت فيه رنة الحشونة : « لقد تحدثت إلى ابنك في بيت العمود . لماذا أخفيت عني أن لك ولداً آخر ؟ »

ف نظرت إليه المرأة دهشة ، وعبثت يدها المرتعشة بشعرها قليلاً ، ثم قالت :

— آه : يا سيدي الطبيب ! العرق البارد يتصبب من جيبتي كلما خاطبني أحد في شأن هذا الابن . أشفق على ، ولا تذكره أمامي بعد ذلك ؛ لماذا ؟ ما الذي تأخذينه عليه : تكلمي في الحق يا سيدي أنه لم يسم إلى ... كان يجري خافي في احترام ... ولكن ... انظر كيف أرتعد حين أتكلم عنه ؟ آه ! استمع ، يا سيدي الطبيب ، إنه ليس ابني

فهل سمع ذلك فقد كل صبر وصاح قائلاً : « كيف ؟ ماذا تقولين ؟ أنت بلهاء أو مجنونة ! ألسنت أنت التي حملته وولده ؟ »

السكرتيرة المجوز رأسها وقالت :

نعم يا سيدي ، ولكنني بريئة من البله والجنون ... لن أنألم من بعد ذلك إن شاء الله ... وقعت أشياء يا سيدي لا تعرفها لأنك صغير السن ، ولكن أنا غارقة في الألم من عهد بعيد إلى اليوم ... وقد رأيت في ذلك العهد أشياء لا تستطيع أن تتصورها

يا سيدي ، وإني أجهر لك بذلك أمام زوجي وأولادي . وهنا مسح روكو فمه بذراعه وهو يرتعد وقد صمد الدم إلى عينييه الغائرتين ، وكان الطبيب يصغي إليه ويحدق ببصره فيه ، ثم قال له :

— ولكن لماذا ترفض أمك الإقامة معك ؛ لأنك تكره أخويك من غير شك

— أكرههما : نعم أكرههما الآن فقط من أجل الآلام التي تسببها لهما ولي أنا أيضاً ، ولكن لما كانا في القرية ، كنت أحبهما وأحترمهما كشقيقتين أكبر مني سنًا . أماها فملي المكس من ذلك كان يجري في عروقهما دم قاييل ! اسمع يا سيدي . كانا لا نعملان شيئاً ، وكنت أنا أعمل للجميع ؛ وكانا يترددان على بيتي ويقولان إن الخير يمولهما وأن أمهما نامت طاوية ، فأعطيهما ما عندي من الطعام ، وقد ارتطما في حمأة الدعارة فتزوجاً من امرأتين لهما سيرة قدرة ، ولكن مع ذلك كنت أعطيها ما يريدان . ولما سافرا إلى أمريكا ودعتهما ونعميت لهما الخير كله . سل اسرأني تلبثك يا سيدي

فقال الطبيب بصوت خافت حتى لكانه يخاطب نفسه :

— ولكن لماذا إذن ... ؟

— لماذا ؟ لأن أي تقول إلى است ولدها كيف هذا ؟

— سيدي الطبيب ، سلها تشرح لك ، أما أنا فليس عندي من الوقت ما يكفي ، والرجل في انتظارى للعمل

قال هذا وابتعد مقوس الظهر والساقين وبده في وسطه كما جاء : وشبهه الطبيب بنظرة لحظة ،

— تكلمى ، ماذا رأيت ؟

— أشياء هائلة مخيفة ، لم تكن أنت فى ذلك العهد قد ولدت ... رأيت هذه الأشياء بهاتين العينين اللتين لم تنيا عن البكاء طوال أعوام كثيرة . هل سمعت إلى أحد يتكلم عن رجل يدعى كانا باردو ؟

— غاريبالدى ؟

— نعم ، هذا هو الاسم الصحيح . وهو الرجل الذى قدم هذه البلاد وأثار المدن والريف على قوانين الانسان وقوانين الله ! أسمعتم إلى أحد يتكلم عنه !

— نعم . نعم . تكلمى . ما شأن غاريبالدى فى هذا الموضوع ؟

— أعلم أن هذا الرجل أصدر أوامره عند قدومه بفتح أبواب السجون جميعاً ، فخرج منها أسوأ اللصوص وأفظع القتلة وأخطر المجرمين ، وكان من بينهم رجل ، هو أكثرهم فظاعة ، يدعى (كولا كاميزى) كان رئيس عصابة تقتل الناس كأنهم ذباب . وتجد فى سفك الدماء أكبر لذة . وكان هذا الرئيس يقتل ويقول : إنى أجرب الذخيرة أو أجرب رعى البندقية . أقام فى الريف على مقربة منا وكان يقتل الرجال الذين يرفضون الانضمام الى عصبته أو يأبون الخضوع لأمره ... كنت متزوجة فى ذلك الوقت ، وقد مضى على زواجى بضعة أعوام وكان عندى ولداى اللذان بقيان الآن فى أمريكا . وكان زوجى المسكين يعمل فى أرض (بوزيتو) فر به كولا كاميزى وأخذه قسراً ؛ وبعد يومين عاد الى زوجى شاحب الوجه كالوتى حتى كدت أنكره ... لم يستطع الكلام وكانت عيناه ممتلئتين بكل ما شاهد ،

وكان المسكين يخفى يديه استمزازاً من كل ما أرغم على فعله ... آه ! يا سيدى الطبيب ، لقد جردى فى عروقى حين رأيته على هذه الصورة . صرخت قائلة عند رؤيته رحمه الله « نينو ، ما ذا فعلت ؟ » ولكنه عجز عن الكلام وجلس أمام الموقد صامتاً وهو يخفى يديه تحت ثيابه وينظر إلى الأرض بعينى أبله أو مجنون . وبعد وقت طويل قال : « الموت أفضل ! » : ظل مختبئاً ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع . كنا فقراء يا سيدى ولا بد من العمل ... خرج ليعمل ، ولم يعد فى المساء . انتظرت طويلاً ثم أدركت كل شيء ، وقلت لنفسى مع ذلك لأدفع عنى الخوف « من يدري ؟ لعلهم لم يقتلوه . ربما أخذوه فقط كأول مرة ! » علمت بعد مضى ستة أيام أن كولا كاميزى يقيم مع عصبته فى (مونتولوزا) . ذهبت إلى تلك الناحية كالمجنونة فى يوم شديد الرياح إلى درجة عجيبة . هل رأيت الهواء يا سيدى ؟ فى ذلك اليوم كان الانسان يستطيع أن يراه ، فيجعله يعتقد أن أرواح الذين قتلوا تصرخ طالبة من الله والناس الانتقام ! أسلمت نفسى الى هذه الرياح ، وكبسى قريحة وقلبي ممزق معذب ، فحملتنى . استغرقت على الأكثر ساعة فى الوصول الى الكهف . كان به فناء كبير محاط بالأسوار يتفد اليه الانسان من باب صغير يصعب العبور عليه . تناوات حجراً لأطرق به الباب ... لم يفتح أحد فعاودت الكرة بشدة ، ففتح الباب ورأيت ... آه بالهول ما رأيت ! توقفت ماراجرازا عن الكلام وقد استولى عليها الرعب الشديد ، وتقلصت أصابعها وخذلها الصوت فعجزت عن متابعة الكلام . وبعد لحظات قالت :

مكمنة الفم لأنى كنت أصرخ وأعضه . وفي نهاية الأشهر الثلاثة ، استطاعت العدالة أن تقبض عليه وترسله إلى السجن ، فمات فيه ... ولكنى كنت حاملاً ... آه ! يا سيدى ، أقسم لك أنى كنت أشعر بأحشائى تتمزق ، وبأنى أحمل فى بطنى غولاً ... واعتقدت أنى لن أستطيع رؤيته أو حمله بين ذراعى . وكلما كنت أفكر فى أنى سأرضعه ، كنت أصرخ كإمرأة أصابها الجنون . كان أحب إلى أن أموت أثناء الوضع ، أى رحم الله روحها ، ساعدتنى وجنبتنى رؤيته ، واستودعته عقب وضعه مبائرة ، أقرباء أئيبه ، فقاموا بتربيته . والآن ، أعرفت يا سيدى لماذا أقول إنه ليس ابنى ؟ آه ! ليتنى ما ولدته ! ليتنى مت قبل أن أحمله !

ظل الطبيب لحظات غارقة فى خواطره ثم قال :
— ولكن ولدك نفسه لم يسمى إليك
— هذا حق يا سيدى ، وإنى لم أنطق بكلمة واحدة تسمى إليه ، ولكن ماذا أصنع ؟ لا أستطيع رؤيته ، حتى من بعيد ! إنه صورة أئيبه تماماً ، وجهه وهيبته وصوته . إنى حين ألمحه أرتعد ويغمر العرق البارد جبينى ! إنه ليس منى ... كيف أصنع !
سكنت ومسحت عينها بظهر يدها اليمنى ، ثم خشيت أن يغادر المهاجرون القرية دون أن يتسلموا منها خطاباً لولدها . فاستجمعت شجاعته وقالت للطبيب السامح فى أفكاره :

— أحسن إلى يا سيدى كما وعدتنى
فتنبه الطبيب وقال : « انى على اسم استعداد »
فدنت المعجوز من المنضدة وشرعت تملى على الطبيب بصوت تخنقه المبرات :
— ولدى العزيزين ...

ترجمة حسن صادق

— فى اليد ... فى اليد ... هؤلاء القتلة ...
توفقت ثانية وحركت يديها كمن يدفع عن نفسه شيئاً . فقال الطبيب :
— حسن . وبعد ؟

— كانوا يلعبون فى الفناء بكرات ... هى رؤوس رجال ... ملوثة بالطين ... كانوا يمسكونها من الشعر ... وكان رأس زوجى فى يد كولا كاميلى نفسه ... عرضها السفاح انظرى فصرخت صرخة حسبها مزقت صدرى . صرخة جعلت السفاكين يضطربون ويرتمدون ... ضغط كولا كاميلى على عنق ليرغمى على الصمت ، ولكن أحد رجاله انقض عليه فجأة ، ثم تشجع أربعة أو خمسة من زملائه وألقوا بأنفسهم على رئيسهم ... لقد تنهوا من غفلتهم ووضعوا حداً لطفيان هذا الشيطان .
وكم كان فرحى عظيماً حين كنت أرى هذا الكلب يختنق أمام عيني بأيدى رجاله

سكنت المعجوز وهى تلهث من شدة الهياج ، وحدق فيها الطبيب وبدت على وجهه أمارات الشفقة والرعب والسخط ، ثم تملأ على ما فى نفسه وفكر طويلاً فلم يستطع أن يستخلص مما سمع أية صلة بين قصة المرأة وابنها روكو ، فسألها الوضوح فقالت :

— انتظر حتى أستريح قليلاً ... الرجل الأول الذى انقض على رئيس العصبة ودافع عنى كان يدعى ماركو

فصاح الطبيب قائلاً : « آه ! أذن روكو ... »
— ولده ... فكر قليلاً يا سيدى الطبيب .
هل كنت أستطيع أن أكون امرأة هذا الرجل بعد الذى رأيت ؟ ! راودنى عن نفسى وأراد اغتنصابى ... احتجزنى عنده ثلاثة أشهر مقيدة

كان جان كرمهوت الهولندي مولماً بجميع الأنواع النادرة من «سام أبرص»^(١) وكثيراً ما كان يتحدث عن طباع هذه الحشرات وعاداتها حديث العالم المحيط غير

لقم كاشف للنسك

TROP SAVOIR

لفرنيس دوبر

بقلم الدكتور محمد الرافي

لحفيف أجسامها الصدفية على الرمال في هذه الأوعية كالضرب على أعصابي دَراكاً لا ينقطع

وفي هذه الشرفة قص على كرمهوت قصة سام أبرص نادر عثر

عليه هو وصديقه ريشارد مرل وسماه باسمه

كان ريشارد هذا أنجليزياً فارغ القامة وثيق التركيب أحمر الوجه عريض الجبهة بارد الطبع . تزوج وهو في السادسة والأربعين امرأة تصغره باثنتين وعشرين سنة ؛ ناضرة بضرة كالزهرة ، لها عنبان زرقاوان تدلان على دلالة . . . وتنبعث منهما جاذبية قوية لا تدفع ، وكأما تقول لمن ينظر إليها من الرجال : « إن زوجي غائب غيبة طويلة للصيد وقد تركني وحدي في هذا الشباب وهذا الجلال ؛ أفترضيك أن أكون وحدي . . . ؟ »

ولنعد إلى قصة الأبرص . قال محدثي : إن مرل رآه فأهوى إليه وانزع من بين الحشائش ، وما كاد يجمع يده عليه حتى صرخ : لقد لدغني في أصبعي قال فنظرت فإذا إصبعه دامية يفور فيها الجرح ، غير أنه لم يكن خطراً لأن سم هذه الدّوية لا يقتل الانسان . فضمدت له جرحه ثم جلسنا نتأمل صيدنا . ولأول نظرة تبين لنا أن هذا الأبرص مما لا يعثر عليه إلا في النادرة

كان ذلك في الساعة الثانية بعد الظهر فلم تنقض ساعة بعدها حتى أنكرت وجه مرل ، فقد

جاهل شيئاً عن الألف والسبعائة نوع المعروفة منها وكنت لا أعرف عن سام أبرص غير أنه دُويبة بتقصّف ذنبها إذا أخذها الانسان منه ؛ بيد أن كرمهوت قرر لي أن هذا الذنب إن هو إلا وسيلة من وسائل الدفاع عن الحشرة ؛ فإذا ما طارد الأبرص ثعبان أو عدو آخر يريد التهامه أمكنه من ذنبه ثم تركه يتأهب به وانخلع منه وأسرع فاحتجر بين الشقوق لا يفادرها حتى ينشأ له ذبل آخر يحمل منه سلاحه الطبيعي

نزلت ضيفاً على جان كرمهوت في مثواه بمدينة باسوروين على ستين ميلاً من (سويسرا) بجزيرة جاوة . وكان المكان هادئاً جميلاً يبتعث الخيال الشاعر ويطل منه الناظر على القرود في أشجارها تتقاذف وتتواثب ، وعلى غمام طائر من أمرب الفراش كأنه سحابة ذهبية تحجب الشمس مرة وتنفرج لها مرة

وكنت أكثر الوقت في شرفة المنزل لا أتحوّل عنها إلا لضرورة ، إذ كان كرمهوت قد جمع في دارة قرابة خمسمائة حشرة مكفوفة في أوعيتها ، فكان

(١) هو الذي يسميه العامة (البرص) وسام أبرص كلمة واحدة مبنية على فتح الجزأين خمسة عشر ولسكنا اقتصرنا على أحد جزأيهما للتخفيف

الآن وتلك الحالة ؟ قال : كما هي
قلت : فيحسن بك أن تطالع أفكار هؤلاء
الجمالين فقد رأيتهم يتناجون فيما بينهم وأحسب
لهم شأنًا . فحدق النظر في الجمالين ثم شَخَّصَ
بصره لا يَطُرف ، وقال بصوت برّده الدم في
عروقه : إنهم يأتُمرون بنا ليقتلونا
فتناهضت فزعًا فأمسك بي وقال : لا ينبغي
أن يمرؤوا أننا اطلعنا على سرهم . قلت أواثق أنت
بما تقول ؟
قال : كوثوق من تفكيرك في تلك الحسنة

ثم استفاق مرل من تلك الغشية فتلون وجهه
ورجع النبض إلى حالته الطبيعية وزال ما اعتراه من
لدغة الأبرص فتهدت تهدأ طويلاً ثم قال : عجيب
أن يفكر هؤلاء الشياطين في قتلنا . فأجيبته وأنا
أتكاف الضحك : عجيب حقاً ولكن ترى كيف
يقتالوننا ؟
قال : لا أدري فقد انجابت عني تلك الغشية ؛
واقعد كنت أرى كل شيء واضحاً بينا ؛ وكانت عيني
في طويتك فعلت عليك حتى ما وسوست به من
أنك عند رجوعك الى سنغافورة
قلت : حسبك فاقعد كان ذلك ولكن الذي
بنا الآن هو أن نعرف ما ذا يريد بنا الجمالون ؟

جلسنا أمام الأبرص وهو يرمقنا بعينه وأفضنا
في أمر تلك الحارقة العجيبة وتعليلها فانهينا الى أنها
كثيرها من مكمكات العلم ، وهي ليست أعجب من
تلك السادة التي جربها علماء أمريكا في المجرمين
فأخذتهم عن وعيهم حتى أقروا وهم لا يشعرون ،

انكفأ لونه وتغير وأصبح كالشمع ، فأسرعت
أجس نبضه فاذا هو بضرب ثلاثين ومائة كالذي
أوهنه المرض ؛ بيد أن الذي أدهشني أنه لم يهن ولم
يضعف ولم يتغير بل زاد قوة ونشاطاً ، وأحس
نشوة كأنه شارب نمل . ثم رأيته وقد انطلق لسانه
كالذي أخذت فيه الحجر مأخذها فحسبته يهذي .
وقال فيما قال :

أتعرف يا كرمهوت أنه قد كُشف عن بصرى
الآن ، فأنا أطلع أفكارك وأفكار هؤلاء الجمالين
الثلاثة الذين معنا ؟

فقلت وقد أيقنت أن به مسّ الحمى :
لأريب في ذلك إن كان مكرًا مما تمكر ،
أو مراً مما تمزح
قال : ليس بي مكر ولا دُعاة ، ولكنه ما أقول
لك ؛ أفأخبرك بما في نفسك الآن ؟
فابتسمت سخريته به ، وقالت له : إن كان هذا
من لدغة الأبرص ؛ فقد وقعت لنا عجيبة المجائب ،
ولكن ما الذي يكشف لك مني ؟

فأغمض عينيه كالذي يجمع فكره ثم قال :
إنك تفكر الساعة يا كرمهوت في تلك الحاد
التي رأيناها بالحانة في سنغافورة

فذهلت مما أسمع إذ لم يتعد ما في نفسي ، وخجبت
مما اطلع عليه من شأني . وكانت أشعة الشمس
الفضية وهي تتناثر من غصون الشجر قد نهت في
خجلي أشعة مثلها من حسن تلك الحسنة . ولكنني
على ذلك رأيت أن أثبت فقلت لمرل : أحسبك
مجنوناً فما فكرت فيها قط

ولكنه نظر إلى خجلى نظرة كانت رداً .
فسألته بمد هنية وقد أغنى قليلاً : كيف أنت

ثلاثة الجمالين هجوم رجل واحد ، فتلقيناهم بالرماح
فقتلنا منهم اثنين وفر الثالث

وفي صبيحة تلك الليلة حملنا القليل من حشراتنا
والضروري من المتاع والزاد وعمنا شطر النهر .
وقال مرل وهو يحمل ذلك الأبرص العجيب : هل
تعتقد يا كرسهوت أن في الامكان قراءة أفكار أى
الناس ممن نعرف ومن لا نعرف ؟

قلت : كلا بل الذين تعرفهم دون غيرهم فسكت
ونكس بصره كالفكر ومشينا حتى إذا توقدت
الشمس في الظهيرة ولفح الهواء جلسنا لطعامنا
وتروحنا ساعة ، ثم حزمنا أمتعتنا ، وبينما كنت
أنقدها سمعت مرل يصرخ وهو قابض على الأبرص
بيديه ؛ فقلت ويحك ماذا تصنع ! قال : ليست هذه
غلطى ولكن الحيوان قد ندّ فأمسكته

ونظرت فرأيت أنه قد انكفأ لونه ثم اعتراه
ما اعتراه من قبل ثم شع في عينيه ذلك البريق
الغريب ، قلت : هل لديك مرة أخرى ؟ فأوماً أن
نعم ؛ فانزعجت الأبرص وألقيته في صندوقه

ولم أكن فطنت لما أراد مرل من سؤاله
فارتعدت من هول الحقيقة التي ظهرت لى ؛ فهو
قد استلغ الأبرص هذه المرة ليطاع من بعيد على
أفكار شخص يعرفه حق المعرفة ، ولكنه لم يفكر
فيه بالأمس ... وكنا على عشرين ميلاً من النهر
ولم نجد ظهراً ولا إنساناً يحمل عنا فإذا هو صانع
إذا اطاع على رغبة .. في تلك الأفكار المخبوءة وراء
العينين الجميلتين ... عيني زوجته التي تركها مبدولة
القدر في سنفافوره ... ؟

ولم ألبث إلا يسيراً حتى رأيت أنه قد وثب قائماً
وهو يرجف ويضطرب ، ومرر يمدو نحو النهر

وسكت ظاهر الرجل منهم وتكلم باطنه . إن هذه
السادة تبطل عمل الكتمان كالخمر

ولما كانت حواس الانسان تسجل الأشياء
عادة من تلقاء نفسها بإرادته وبغير إرادته ، في وعى
وبغير وعى ، فإن سم هذا الأبرص يهيج ولا شك
قوة التسجيل هذه الى وقت محدود ، وينشط العقل
الباطن فيصفو المخ وينكشف له كل ما سجلته
الحواس . فلا جرم كانت حواس مرل قد سجلت
أشياء كثيرة فيما يختص بهؤلاء الجمالين ، ولكن
طمس عليها انشغال مخه بأشياء أخرى

ثم قلت : أما أنا فأعتقد أن هذا السم يهيج
القوى الباطنة فيكشف للانسان ما سجله طبيعته
الحيوانية ، فهو يحمل الروح الغريزية فوق العقل .
وعلى كل حال فليسننا الآن في السم والسام ولكن في
التنبه للجمالين هذه الليلة

كانت الليلة مُسَجَّةً بظلامها سواد على
سواد ؛ وكانت السماء ضريبة النجم ، والغابة
ساكنة كأنها تتوقع أمراً فهي تحبس أنفاسها ،
والحيوان كله صامت كأنما يتربص كل لكل .
فجئنا نتناوب الليل ، أحرس وقتاً ويحرس مرل
وقتاً فلما كنت في نواتي شعرت بدخول الجمالين ..
لم أسمع لهم حساً فان جريان الدم في أذنى ربما عاقهما
عن ادهاف السمع . ولكن دلتني عليهم اقشعرار
بدنى ونفور الشعيرات الدقيقة الحس ؛ فمددت
يدى وأيقظت مرل

وكان أحد الجمالين في زحفه على الأرض قد
مس رماد النار وهي كابية تحته ، فانبعثت منه آهة
لم يتمكن من ردها . وفي هذه اللحظة هجم علينا

فناديته : أمتعتك يا مرل ؟ فاستدار بنظر إلى بعيني
مجنون في وجه قاتل ، وصاح بي : ماذا تريد ؟
قلت : خذ عني أمتعتك أو احمل على الأقل
هذه الحشرات

قال : ليأخذك الشيطان أنت وحشراتك . ثم
طار على وجهه في الغابة ، فأسرعت أحمل ما خف
ومى الأبرص ، وجعلت أعدو خلفه وهو منطلق
يصيح ويلعن جميع النساء من ذوات العيون الزرق ...

الحرق شديد كاللظى ، والأبحرة الخائقة تنفّس
من جوف الغابة ، والذباب المتعلق يلتف بساقى ،
فيجاذبني وأجاذبه ، ودود العلق يتزاحف على
جسمي ويندس بين ثيابي ، والذباب يتناولني بلسمه ،
والعرق يتحدّر من جبيني فيكاد يغشى على بصري
وأنا في ذلك أعدو أشدّ العدو لألحق بالرجل . فبعد
لأني أدركت أثره وسمعت حسيه فجأت أصيح
به أن يقف أو يتمهل وهو لا يلتفت إلى ولا يسمع
إلا صوت دمه يريد أن يغسل شرفه بالدم ، فقد اطلع
على أفكار زوجته التي تركها وحدها : واستمر
هذا مني ومنه إلى الليل فكدت أجن مثله ...

أقبلت على الأماني والأحلام ، فتوهمتني
أصبحت من أهل الثراء ، ثم من ذوى الملايين إذ
أبيع « لدغات الكشف » بالثمن الغالي لكل زوج
غيور ... ورأيتني في قصرى الجميل أملك ما أملك
وأنفق ما أنفق وأنال ما أنال وسوف وسوف ...
حقاً لقد كنت مجنوناً مثل صاحبي فان الحرارة
والأبحرة ودود العلق والذباب قد ملأت رأسي
ضباباً ...
وأظلم الليل وبلغنا النهر ، وكنت أخشى أن

يقذف مرل نفسه فيه ليعبره سباحة إلى بنجارون
وفي النهر التماسيح ... غير أنه ثبت على الشاطئ
فأدركته فاذا هو ممزق الثياب أشعث أغبر منتفخ
الوجه غدّش الأديم كأنه وحش في إنسان .
فأعطيته ما يتبلّغ به وسقيته جرعة من الكحول ،
وسألته أن ينام ، ولكن أنى له النوم وقد رأى
ما رأى من أمر زوجته ... وخشيت إن أنا غمت
أو غفأت أن يسلبني الأبرص وفيه ثروتي وأحلامي
وشهرتي التي تملأ الدنيا . فخطمت أعصابي في
مدافعة النوم وبث هالكاً تعباً وسهرأ وخشية ،
وعينا الظلام بهوميه ، وحولنا الأفاعي يسمو بها .
وأطرق مرل لا يتكلم إذ كان في نفسه كلام آخر
ووردت على الأحلام بعد الأحلام ، فاذا أنا

قد غمت آخر الليل وصرعتني الحمى
ولما سطع الفجر أبصرنا زورقاً فلوّح لهم مرل ،
فلما دنا منا صرخ في النوتية أن يحملوه ، فراهبهم
منظاره الخيف وحسبوه قاتلاً قد جنى الجنابة ويريد
الفرار فترددوا هنيهة ، ثم قبلوا بعد أن شرط لهم
حكمهم في الأجر

ومسح الصبح على وجهي بنسيمه البارد فرد
إلى عقلي فتناسيت أحلامي وجعلت ألتطف بمرل
وأديره عن خواطره ، وأوهمته أن سم الأبرص قد
هاج فيه مثل الحمى بهذيانها وأيس له أن يقطع
باليقين في مثل هذه الحالة . ولكنه كان في أشد
اليقين كأنما رأى رأى العين

ولما بلغنا فُرصة النهر كانت الباخرة الهولندية
المسافرة إلى سنغافورة قد تحرّكت ، فصرخ مرل
بصوت كالرعد يأمر ربانها أن يقف كأن له عليه
حق الأمر ، فأدار الربان ظهره ولم يعبأ به ، فلم تكن
إلا طرفة العين حتى أنصأ ما بقى عليه من الثياب ثم

وطار الى ذلك المأوى ، وتعلق بفروع النبات المتساقطة على جدرانها حتى بلغ الى النافذة ، فأطل منها ، وكان قد استعمار مسدساً من أحد أصدقائه في الطريق فصوبه وأطلقه ثلاثاً ثم هبط الى الأرض واختفى وجاء الشرطة فاقتحموا المكان ، فاذا بزوجة مرل مضرجة بدماها وفي كتفها رصاصتان ، وقد اختبأ تحت السرير شاب أسمر اللون مرت الرصاصة الثالثة على صدره فخدشته ولم تؤذ . فنقلوا المرأة الجريح الى المستشفى وأطلقوا صاحبها

وسكت محدثي مرة أخرى لينظر الى القرد الأذقن ، وكان قد رجع من مطاردة غريمه وأخذ يهمهم لأتاه بصوت يأمر وينهى ، وهي في ذلك تطأطأ رأسها مدعنة . . فقطعت عليه وقالت له : وماذا فعلت بالأبرص بعد ذلك ؟ فطافت على شفثيه ابتسامة خفيفة وقال :

مكثت في بنجرمازان ثلاثة أشهر جمعت فيها أنواعاً أخرى من الحشرات ، ثم أخذني الحنين الى وطني امستردام وإلى أطمعنها الشهية والجمعة اللذيذة التي عُرفت بها . فجمعت أمتعتي ووضعت الأبرص في صندوق أخذته له وكنت قد كتبت عنه وعن خواصه في المجلات العلمية الأوربية ، ونشرت له صوراً عدة ، فاشتغل العلماء بالحديث عنه في برلين ولندن وينا وغیرها وباتوا يرتقبون أوبتي

وَرَسَّت الباخرة الى مرسيليا ، فتجاشيت طوال الرحلة الاختلاط بالمسافرين ، إذ سمعت معاشرۃ الناس ؛ بيد أن رجلاً من الظرفاء كان قد عاش طويلاً في أنقرة مع امرأته الفرنسية جعل يتسبب لمعرفتي حتى اتصلت الأسباب بيني وبينه ،

رمى بنفسه في الماء وجعل يسبح إلى الباخرة والنماسيح تتجه إليه وتدنو منه ، وقد ضج الناس وصاحوا وأجلبوا ، وكنت أتوقع بين الثانية والثانية أن يكون قد غاص به تمساح ، ولكن يظهر أن وجهه الوحشي وجسمه الضخم المحدث قد جعلاً منه حيواناً يخيف الأسماك ... فكانت تحوم حوله ولا تناله . ورق له الریان ، فأمر بالقاء الجبال فاجتذبه البحارة ، فلما صار على الباخرة هتف بي أن ادفع ما شرطنا لأصحاب الزورق ولك وحدك هذه الحشرة المللونة ...

وسكت محدثي ، فقد رأينا على بعض الأشجار القريبة من المنزل قرداً أذقن يضرب أنثاه ومن حولهما اصطفت جماعة القردة كالنظارة وقد خلدوا بين الزوجين ، وكان القرد الهرم يضربها ضرباً مبرحاً على رأسها وهي تصرخ وتتلوى من الألم ؛ فلما طال ذلك وثب قردٌ فتى فدخل بينهما يريد حماية الأنثى فانقض عليه الآخر وأقبل يطارده من شجرة إلى شجرة حتى غابا جميعاً عن الأبصار ثم تابع كرمهوت حديثه فقال : لم أر مرل بعد ذلك اليوم غير أني لغيت ربان الباخرة الهولندية بعد أوبته فسأته عن خبره فقال :

أنتك لآنت الذي بمث إلى بهذا الجنون القتال ؟ فقلت : الجنون القتال . . . قال : نعم لقد كان مجنوناً وأوشك أن يصير قاتلاً ، فانه ما وطئت قدماء الأرض حتى هرول في لباسه البحري القديم الذي أعرفناه إياه فاستقل عربة الى داره فلم يجد بها زوجته ، فاستدل الجيران فانبأ أحدهم أنه واجدها إذا شاء في منزل عيته ، وهو من تلك المنازل التي تتخذ للفجور . فجن جنونه

فتجاذبنا الحديث وكان رجلاً واسع العلم فذاكرني
وذاكرته ، وقد أطلع بأبحاثي وقرأ مقالتي الأخيرة
وكان يعرف شيئاً كثيراً عن الثعابين ، ودرس
المنكبوت دراسة خاصة

وأفضى بنا الحديث يوماً الى ذلك الأبرص
وخواصه العجيبة ، فقصصت عليه قصة مرل فقال
لولا أنك ممن يمتدح قوله لمددتها من الأكاذيب .
ثم جعل يعني به أكثر مني ، فكان يعضى الساعات
الطوال في الاشراف عليه وتأمله ومراقبة حركاته

وصرناعلى مسافة يوم من مدينة عدن ، فاشتدت
في الليل وطأة الحر ، فتركت حجرتي وصعدت
الى ظهر الباخرة واستلقيت تحت النجوم ونمت
ملء عيني ، فأنى لأغسط في نومي إذ نهني طلق
ناري أعقبه صياح ، وصرخ أحد البحارة : أن قد
وقع رجل في الماء . فنادت الباخرة وأنزلوا قارباً من
قوارب النجاة الى البحر ، ولكنهم لم يعثروا على جثة
صديقي . . . نعم صديقي فقد انتحرت غرقاً بعد أن
قتل أحد المسافرين الذين ركبوا من سنغافورة ، إذ
رآه خارجاً من مقصورة زوجته فرماه بالرصاص

لم يطب لي البقاء على ظهر الباخرة فانهذرت
الى مقصورتى وما كدت أفتح بابها حتى رأيت
منظراً أجدت له في موضي ، فقد كان صندوق
الأبرص مفتوحاً مائى على السرير ، ورأيت أنه هو
يدب على اللحاف . . . فأدركت حينئذ من الذى
أخرجه من صندوقه . . . وأغلقت الباب وخففت
لمقابلة الربان فأصبته في حجرة القنيل ومعه الطبيب
يفحصان أوراقه . وما كدت أنظر حتى شذعت ،
إذ لمحت بين الأوراق صورة جميلة لزوجتي مرل !
فالتفت نحو الربان وقال : هل تعرف هذا الرجل ؟

قلت : كلا . بل أعرف هذه السيدة
ثم قصصت عليه كل ما وقع . وكان الرجل
الذى قتل في الباخرة هو ذاته ذلك الذى أفسد
زوجة مرل . وقد عثرنا بين أوراقه على رسائل منها
تدعوه فيها أن يلحق بها في إنجلترا . فقتل الدور
نفسه في الباخرة مع زوجته صديقي الآخر . . . وكان
الأبرص هو الذى كشفه أيضاً هذه المرة

ولما علموا علم هذا الحيوان العجيب نزلوا معي
الى مقصورتى . وحرك الطبيب شفتيه بكلمات لم
أفهمها ، وفجأة انتزع مروحة من سقف النخل
كانت على الحائط ومدّها نحو السرير فاقنص
الحيوان فيها وقذف به من السكوة الى البحر

وجرى كل ذلك في مثل طرفة العين ، فلم
أملك غير الصيحة وانتفضت من الغضب ورميت
بنفسي على الطبيب أريد خنقه ، خال بيني وبينه
الربان ، وجعلت أرعد من الغيظ ، والربان يتلطف
بى ويهدئ مني ، ويصرخ أن الطبيب ما أهلك
الأبرص ولكن أهلك الشر

واقطعت في مقصورتى ، وقد خابت جميع
آمالى ، فلا مال ولا شهرة ولا علم ولا كرامة ،
ولن أجد بعد اليوم حيواناً من هذا النوع النادر
كلا ، لن أجد . . .

انتكأ كرمهوت برأسه على كرسيه ثم أغمض
عينيه بعد أن انتهى من القصة واسترسل في خياله
أما أنا فجعلت أفكر فيما صنع الطبيب . . . لقد
حرم العلماء شيئاً من الزيادة في العلم ، ولكنها
بمينها زيادة في الشر . . . !

أما والله لو تكاشف الناس بالحقائق لقتلتهم
الحقائق . محمد الرافعي

الهاتف

دخول «سعيد الميداني»
على مدير دار الكتب
- حين أذن له - وهو
يحكي وينشر الجريدة التي

الرشد من أعماله ، فالحقه
بمساعديه الكثيرين ،
وما لبث أن صار يعتمد
عليه في تعقب الأخبار
وتقصي الحقائق

ورأى المدير أن سعيداً ينظر إلى الكتاب
الذي بين يديه فمسح جبينه العريض بأمامه ثم قال :
« على فكرة ... هل عندكم في « الأحوال »
ملفات خاصة بتراجم المشهورين ؟ »

ثم كأنما تذكر أمراً فقال : « متى أسست
جريدة الأحوال ؟ »

فقال سعيد « بعد الحرب العظمى ... سنة
١٩١٩ - أو ١٩٢٠ »

فقال المدير : « إذن لا فائدة ... »
فقال سعيد « هل تسمح لي أن أسأل ما هي
الحكاية التي أستطيع أن أساعد ؟ »

فقال المدير : « الحقيقة أنها مسألة غريبة ...
كنت أمس أقرأ كتاباً لعبد القادر التليعي وهو
كاتب مصري وشاعر أيضاً وإن كان شعره قد
ضاع باهماله أو على الأصح لأنه هو أبي أن ينشره
لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأى الناس فيه ، وقد
كان مشهوراً منذ أربعين سنة ، ثم اختفى فجأة ،
ولا يدري أحد أهو حي فيرجى أم ميت فيبكي ...
وقد رجعت اليوم إلى المستدرك (وأشار بيده إلى
الكتاب الذي بين يديه) وهو كما تعلم الجزء الرابع
من كتاب الأعلام للزركلي ، فوجدت فيه نبذة
عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه إلى آخر
ذلك وليس فيها تاريخ لوفاته ؛ والمفهوم من هذا
بدهاءة أنه كان حياً حينما صدر الجزء الرابع من

كانت مطوية تحت إبطه وقال وهو يقدمها له :
« هل قرأت هذا يا بك ؟ .. إن الحملة واحة
التأفيق ، ولهذا جئت وفي مرجوى أن أظفر منك
بيان للرد عليها »

فتناولها منه المدير وألقاها على طرف المكتب
ولم يكتم خجره وهو يقول : « تفضل ، تفضل . إن
كل ما يعني رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون
- كل ما يطلبون - فيها وأن يهتدوا إليه بسرعة
وسهولة وبغير عناء أو تضيق وقت ؛ ومتى كان
هذا حاصلًا فلست أبالي ما تكتب الصحف أو يقول
غيرها ؛ وهذا حسبي وحسبك بياناً . فإذا قنعت
به فذاك ، وإلا فأمرى إلى الله فما أستطيع أن أضيق
وقتي في الكلام الفارغ »

وكان أمامه وهو يقول هذا كتاب ضخم
وضع بين صفحتين فيه قلماً أحمر غليظاً ، وكان
ينظر إلى إحدى الصفحتين ويشير بأصبعه إلى
سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به ؛ بل لقد
خيل إلى سعيد أن الأمر كذلك ، ولكنه هز رأسه
كأنما يريد أن يطرد هذا الخاطر ، فقد استأذن من
غير أن يبين الغرض من المقابلة . وكان سعيد من
أحدث خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية ومن
أنشطهم وأشدهم إقبالاً على التحصيل والاطلاع
ونزوعاً إلى الاستقلال والعمل الحر ، وخال فيه
صاحب جريدة « الأحوال » الخير من لمحاته ، وآنس

عن مصر وخلف أسرته بها وترك لها كل ما جمع من مال ، وكان ابنه قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه ، ولم يرجع الأب بعد ذلك ولكن من المحقق أنه لم يموت وإن كانت أخباره قد انقطعت ... نعم أذكر هذا ... »

فقال المدير : « أوافق أنت من ذلك ؟ »
قال سميد : « كل الثقة ... ولكن أين هو ؟ لا يدري أحد »

قال المدير : ولكنه - إذا كان لا يزال حياً - لا بد أن يكون الآن قد جاوز الثمانين ... انتظر ... ولد ... ولد ... نعم ... سنة ١٨٥٠ فهو الآن في السادسة والثمانين من عمره ... هل تظن ؟ . ولكن ... السادسة والثمانين ؟ ... يا لله ! ... أنظن ؟ ... إني لا أكاد أصدق ... لقد كان معروفاً عنه أنه مسرف في إنفاق حياته ... لا يبالي أعاش أم مات ... فكيف يمكن ؟ ... »

فقال سميد : « مثل هؤلاء الذين لا يباليون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يمعرون »

فقال المدير وهو شارد : ربما ... ربما ... ولكن ٨٦ سنة ؟ ... هذا عمر ! ... هذا ... »

فنهض سميد ومد يده إلى المدير وقال : « سأعني بالبحث . وإذا وقعت إلى شيء فساخبرك »

فناولته المدير يده وهو يقول كالمحدث نفسه : « ٨٦ سنة ؟ أما لو كان حياً ؟ ولكن كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

— ٢ —

مضى شهران على هذا الحديث لم يسمع في خلالها كلمة من سميد ولم يكف هو أثناءهما عن البحث والتقصي - عبثاً - فأقصر يائساً وصرف

أعلامه - أعنى المستدرك - ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاة إذا كان قد مات ولكنه كان حينئذ خليقاً أن يذكر تاريخاً تقريبياً لوفاة على عادته . لهذا أرجح أن الرجل كان حياً وقت صدور الكتاب . ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل ... فهل هو لا يزال حياً ؟ أم تراه مات ؟ وأين ؟ هذه هي المسألة ... ولست أعتقد أن في وسعك أن تساعدني ولكن أدر المسألة في خاطرك عسى أن تهتدي إلى شيء فتخبرني ... إذا سمحت ولك الشكر »

ونفض وافقاً إيداناً بانتهاء المقابلة . ولكن سميداً كان مطرقاً وكان بفرك جبينه بأصابعه ، فلم ير المدير يقف فعاد ذلك إلى مقعده على مهل ، وقد جال بذهنه أن لعل هذا الشاب يعرف شيئاً يستحق أن يصنى إليه . وتنبه سميد ورفع رأسه وقال وعينه على السقف :

« عبس القادر التيمى ؟ أى نعم ! أذكر هذا الاسم ... وإن كنت لم أقرأ له شيئاً ... قرأت عنه ولكن لم أقرأ له ... وسمعت من أستاذنا في الجامعة أن الناس في عصره كانوا في حيرة من أمره ، وكان أكثرهم لا يعرف له جداً من هزل ... وكان يتهم بكل شيء ... كل شيء حتى نفسه ... وكان أسلوبه جديداً في بابيه فأخذ الناس على غيرة وأكثر مقلدوه ولكنهم أخفقوا فأقصروا ... »

وهنا تامل المدير فما كانت به حاجة إلى من يصف له الرجل وإنما كانت حاجته إلى من يدلّه عليه وعلى مكان قبره

ومضى سميد في كلامه غير عابئ بضجر المدير فقال : « نعم ... وأذكر أن أستاذنا قال : إنه رجل

سيجارة ويضعها في الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع في الطبق أربع سجائر بعضها أقصر من بعض وهو ذاهل عنها جميعاً . وإبه لهم بأشغال الخ مسة وإذا بالخادم - فقد كان في بيته - بنفته أن « سعيد أفندي الميداني » قد حضر ، فيقول له بلهفة : « أدخله .. أدخله » ويسبقه هو إلى الباب ويدخل سعيد أفندي ويده في يد جميل بك وهو يقول : « نعم وجدته ... في غرفة في ربيع قديم في أعتق أحياء هذه المدينة ... أو هو من أعتقها ... »

فيقول جميل بك : « وكيف وجدته ؟ »
فيقول سعيد أفندي : « أوه ... هذه حكاية طويلة ... وليس المهم كيف وجدته ، بل المهم أنني وجدته ... ويمكنني أن أقول لك إنني استعنت بابنه وقد كان اعتقاده أنه مات لا محالة ولكنني زعمت له هذا الاعتقاد بمنف بل بقسوة ... هل تعلم أن ابنه أحبل على المماش منذ سنتين وأن له حفيدة تزوجت وولدت بنتاً ... ؟ »
فيقول جميل بك : « ليس عجيباً أن يمتدد ابنه أن أباه مات وشبع موتاً ... ولكن كيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد مرة أخرى : « لقد قلت لك إن هذه حكاية طويلة »

فيقول جميل بك : « إنما أعني كيف حاله ؟ »
فيقول سعيد : « حاله ... وماذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين وأقدمته شيخوخته العالية عن العمل ؟ . فقر وضعف وعمش ... حال لا يعلم بها إلا الله »
« ولكن كيف يعيش ... ؟ »

نفسه آسفاً عن عبد القادر التميمي . وكان جميل بك - أو إذا شئت اسمه كاملاً جميل بك أحمد القناوى - مخلصاً عطوفاً رقيق القلب وقد شق عليه جداً أن يحدث في القرن العشرين أن يحتفى أدب مشهور وأن تنقطع أخباره نحواً من أربعين سنة فتتساءل الدنيا التي كان يمر بها ويلاؤها حبوراً وجذلاً ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغي أن يعرف ... أهو حتى أم تراه مات ... وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة إنسانية لأنه لم يكن يشك في أن اختفاء هذا الأدب وانقطاع أخباره سيبيهما بأس عميق آخذ بالكائيتين ... وهو مع ذلك الذي يرفه بكتابته عن الناس وينمش نفوسهم ويفضيها بفكاهته وبفيض على حياتهم البشر والنور كما تفعل الشمس . ولم يسمه إلا أن يوجب لاختفاء رجل مشهور في عالم لا يكاد يختفى فيه شيء في هذا العصر ؛ ورجح عنده لهذا أن الرجل لا بد أن يكون قد لقي حتفه في أول مراحل هجرته - إذا صح أن تسمى هجرة - ولا يبعد أن يكون قد تنكر وانقأ ألا يحمل معه ما يدل على حقيقة ، وأخلاق به حينئذ أن يكون قد دفن حينئذ انفق بالامم الجديد الذي تنكر به .. وهو جميل بك كتفه ومط شفقيه ، ثم زفر زفرة طويلة وقال : « إبه ! لا حول ولا قوة إلا بالله »

وشرع يشعل سيجارة وإذا بالتلفون يدق إلى جانبه فتناول السماعه متثاقلاً وقال : « نعم » ولكنه ما عثم أن اعتدل في جلسته وصاح : « إبه ؟ . ماذا تقول ؟ »

ولكن الذي خاطبه أكتفى بما قال ، فوضع جميل بك السماعه وقام يتمشى بسرعة ويشعل

« كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون حقيقة أنه يسمى نفسه عبد القادر ناجي ... أليس اسماً غريباً ؟ إن اختياره له يشي بثقته بالله وبحسن المآل على كل حال ... لقد أدهشني منه أنه لا يزال يبتسم للدنيا ويؤمن بحسن حظها في الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقة الشديدة ... ولكن من يدرى ؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه »

فسأله جميل بك : « ألا يعرف أن ابنه موجود ؟ »

فقال سعيد : « يعرف ... ولكنه أبى أن يذهب إليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يحمل نفسه حميلة عليه وخشى أن يأنف ابنه من الالتساب إليه إذا وقف على حاله الزرية »

« وهل قابل ابنه ؟ »

« بالطبع ... وقال له حين رآه ... من يصدق أنك ابني ! إني أبدو أصغر منك على كل حال . يمكنك دائماً أن تشي أنى ما زلت على قيد الحياة ، فما أشك في أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتى . وأحسب أن بعثي الآن قد خيب أملك في ... كذلك قال لابنه ... مدهش أن ذهنه لا يزال حافظاً لقوته ... قال لابنه في جملة ما قال إني لا أكبرت كنت أقول لو عاش أبي لما عاشرته لأنى أستشكف أن أكون فرعاً وأحب أن أشعر أنى أنا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعمما غذاه ونماه ... ولكن ذهنه يشرد أحياناً فيخاطب فلا تفهم كلامه لأنه يكرر راجعاً في كلامه إلى ذكرياته الطويلة في حياته الحافلة من غير أن يشمرك بالانتقال أو الرجمة فتحس أنك تهت وضلت

طريقك ، وقد تظنه يهذى ولكنه ليس هذياناً بل كثر الذهن الى الوراء فجأة بغير انذار ... ولما قات له إنك تبحث عنه فحك وقال : هل يريد أن يغلفنى ويضمنى على رف ... وقال عن كتبه لما عرض ذكرها أن خيرها ما لم يكتبه ... ولا تزال أسنانه باقية . وقد قال لي إن متانتها وسلامتها من الآفات هما السبب في بقاءه حياً الى الآن ... ولما قلت له إن من واجبه أن يعلى مذكراته على بعضهم صاح بي : « أعوذ بالله يا شيخ ! حرام عليك ... اتق الله في يا بني »

فسأل جميل بك : « وماذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة ؟ »

« أوه كل شيء ... قال لي إنه لم يعيش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب . وأن كل ما كان يرى نفسه تشبهه كان يرى أنه محروم منه . وكان مما ينقل على نفسه جداً أنه لا يرى نفسه يفعل إلا ما يكره ، فهو لا يحب المجالس التي يكثر فيها الناس ولا يرتاح الى أحاديثها ولا يغتبط بالزوار ، ويحب أن يشعر أن بيتته حصن منيع لا يقتحم ، ويود ألا يجالس الا الذين يصطفهم من الاخوان وبأنس بهم ويطمئن اليهم ، ولكنه كان يجد — لسبب خارج عن ارادته بل ضد ارادته — أنه يعيش كما يعيش الناس ، ويفعل ما يستثقل ، ويحرم ما يحب ؛ وقد كبر في ظنه أنه سيظل حياته هكذا ؛ ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون الى هذه الحياة أو أن يوطنها على احتمال هذا التقيد الذي لا يعرف ماذا يفرضه عليه ، وشق عليه أن يظل هكذا — يعرف أنه حر ولا ينعم مع ذلك بحرية ؛ ففكره هذه الحرية الظاهرية ومل السخط على نفسه

ابنه . . . وقد أطلال النظر إلى البسطة الأنيفة التي يلبسها ابنه ثم ألقى نظرة على الجلباب البسيط الذي يرتديه هو ، وأشار بيده المعروفة إلى اثنين وقال : « لا لا لا لا . . . دعني لشأني فإنه غير شأنك » ولم يزد بعد ذلك على الابتسام كلما ألح عليه ابنه في القيام معه . . .

فقال جميل بك : « والآل ألا نستطيع أن نصنع شيئاً لهذا الرجل الذي كشفنا عنه ؟ ... إن رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلها وقموا على حجر قديم أفلا ينبغي أن ننبه الناس إلى حقيقة هذا الرجل الذي لا يزال حياً وإن كان محسوباً في أهل القرون الخالية ؟ »

فقال سميد : « بالطبع نستطيع . . . يمكن مثلاً أن نقيم احتفالاً كبيراً في أكبر الفنادق ندعو إليه رجال الأدب والعلم والفنون والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقدم إليهم صاحبنا ... غرامة الموضوع نفسه كفيلاً وحدها بأجراح الحفلة . . . »
فهر جميل بك رأسه وقال : « لاشك .. ولكن صاحبنا لا يزال هذا . . . ولا فائدة له منه على كل حال . . . وأما أخشى إذا دعونا إلى الاكتتاب أن لا نفوز بشيء يستحق الذكر فنكون قد أهنا الرجل بلا داع . . . ثم من يدري ؟ فقد يأبى هذا وذلك . . . »

فقال سميد وهو ينهض : « أقول لك . . . دع هذا لي . . . والله الموفق »

— ٣ —

لم يكن الأستاذ عبد القادر التميمي يبرح بيته ، وكان يجلس طول النهار على سرير الضيق تحت النافذة ويطل منها ولا يكاد يحول عينه عنها . ولم

فود لو أنه مقيد حقيقة بإرادة غيره ليتسنى له على الأقل أن ينحى باللائمة على هذه الإرادة الخارجية ويجعلها غرضاً لذمه وطعنه . ولهذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبيته للملاحة وركب على بواخرها البحار وأقام في الموانئ مندوباً لها ، ثم ترك ذلك وعمل وكيلاً تجارياً بحوب المدن ويذرع الأرض داعياً مرغباً ، ثم انقلب مدرساً للغة العربية في بلاد الأفغان حتى أقعده الشيخوخة ولم تقمده في الحقيقة ، ولكن الناس كانوا يرون أن سنه عات فهم يزهدون فيه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سنّاً ؛ وكان قد جمع مالاً في رحلاته الكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاد فعاد ، إلى مصر فدخلها ومعه نحو تسعين جنياً قال لي وهو يضحك أنه حدث نفسه أنه ينبغي أن يموت بعد أن تنفذ فما له رزق سواها ، ولكنه كان يخرج ويتردد على المكاتب التجارية فأنس به أصحابها وأدر كوا أنه عالم وأن في وسعهم أن يستغلوه فكان يضبط لهم الكتب القديمة التي يبيعون طبعها ؛ وساعده ذلك على إطالة عمره ، فقد أغناه ذلك عن الاتفاق من رأس ماله أو ما بقي منه ، ومعنى ذلك عنده أن عمره طال لأنه يحسب عمره بما لديه من المال ، فعلى حسب كثرة أو قلته يكون ما بقي له في الدنيا من السنين . . . فهل رأيت أعجب من هذا ؟ »
فأطرق جميل بك شيئاً فشيئاً ثم رفع رأسه وقال : « لاشك أن الأمر عجيب ، ولكن ألم يأخذه ابنه بعد أن اهتدى إليه ؟ ... »

فقال سميد : « أوه . . . إن الرجل شاذ كما تعرف ، وقد أبى كل الآباء أن يذهب إلى بيت ابنه لأن هذا خلين أن يحدث في رأيه اضطراباً لا داعي له في حياة

ورجال الدولة أيضاً ... فنفرغ من الأمر كله في ساعة »

قال : « ساعة ؟ . يا حفيظ ... »

قال : « هذا أهون من أن تظل كل يوم وكل ساعة معرضاً لحضورهم إلى هنا وإزعاجك ... فكر ... »

قال : « صدقت ... ولكن ... حفلة ؟ ... حفلة ؟ ... إن هذا صعب ... »

قال : « لماذا ؟ . أين الصموبة ؟ . ما عليك إلا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم تنصرف جميعاً وكفى الله المؤمنين القتال »

فأطرق الرجل قليلاً ثم قال : « ولكني لا أريد أن أختصر حياتي ... إنني أستطيع أن أعيش ... دعني أنظر ... »

فما لجه سميد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحلقة من النفقات للشباب ، فقد كان هذا هو الذي يفكر فيه ويستثقله خوفاً على عمره

ولكن المشكل لم يحل مع ذلك فقد كان ابنه

— على بك — فقد صار بيكا — عبد القادر

التميمي — في حيرة شديدة من أمره من جراء

عناد أبيه ، فانه — أي على بك — رجل ذو مركز

ومقام في المجتمع ، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب

لرجل له مركز ومقام في المجتمع أيضاً ، وابس بليق

أن يكون أبوه — أي أبو على بك — هذا الرجل

الرث الهيئة الزرى اللباس الرقيق الحال الساكن في

غرفة حقيرة في ربيع عتيق — أو جديد إذا أمكن

أن يكون هناك ربيع جديد — وقد استطاع أن

يرجي لقاء بنيه ونسيبه لهذا الأب الذي جاء من

حيث لم يكن يحاسب ، فقد زعم لهم أن العشر عليه

يكن يرى شيئاً في الحقيقة إلا أشكال المباني القريبة وذلك لضعف بصره ، ولكنه لم يكن ينظر ليرى شيئاً ولا كان يعنى بأن يرى أو أن تأخذ عينه الناظر وإنما كان يحدق كالذاهل ، وكانت أسارير وجهه المتجمد تنبسط أو تغمق الأخاديد التي حفرها الزمن فيخبل إلى الناظر إليه أن هذا وقع ما يشاهده ، ولكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك وتقيضه فما كان يبصر شيئاً وإنما كان يدير عينه في قلبه أي في ماضيه فيبدو عليه السرور أو الألم أو غير ذلك كما يبدو على وجه من يشاهد قصة معروضة في دار من دور السينما . وكانت سميد يزوره كل يوم مرة — وأحياناً مرتين — في اليوم ويصنئ إليه أكثر الوقت وهو يهضب ويسح بذكرياته التي لا آخر لها . وقال له مرة :

« ما رأيك يا أستاذ ؟ . إن خبر عودتك قد

شاع وذاع بين الأدباء ورجال الصحف وكلهم متلهف

على رؤيتك »

فقال بايجاز : « فليأتهموا »

فقال سميد : « ولكنهم لا بد أن يصلوا إليك

في النهاية .. كما وصلت أنا .. ولا سبيل إلى صدم »

فتعجبهم الرجل وقال : « ولكن يجب أن ينعنوا ...

إن المكان لا يليق .. ما العمل ؟ . أشر ... »

قال : « اسمع مني وأطعني ... خير ما يمكن

أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة »

قال : « ولكن كيف يتسنى ذلك ؟ . هذا

مستحيل »

قال : « كلا ... الضرورة تفتح الحيلة ... وقد

رأى المجبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا

حفلة يدعون إليها الأدباء والعلماء ورجال الصحف

يريدون أن يحتفوا ببعثته ، فانه يحسن بسعيد أن يحمل إليهم ما جاء به من الثياب على مشجب ويقول لهم إن هذا ما يطلبون وهو كل ما يستحقون أن يروا ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها بل قال بما هو أعنف ، وكان صوته متهدجا ، وكلامه متقطعاً ، وكانت لحيته الطويلة الكثة تضطرب ، وأسنانه تصطك ، فلم يجد سعيد بداً من السكوت والكف عن الأحاح عليه بمد أن وضحت له قلة جدواه ، وسأل الله في سره الستر والسلامة في هذه الليلة

وخرج من الغرفة - سعيد في ثيابه الأفرنجية التي يلبسها الأفندية من أمثاله ، والأستاذ التميمي في جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل ، فكأنه « مركوب أبي القاسم » وطربوش مصرى سوى أنه طرى وعاليه لفة كانت في الأصل مزركشة فأصبحت ألوانها حائلة باهتة

وكان سعيد قد جاء في مركبة وتركها تنتظر في الطريق أمام الباب ، فأحاط بها غلمان الحارة - هذا ينط على السلم ، وذلك يبعث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك عدة مرات ، والسائق يصبح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التي دخل فيها هذه الحارة ، ويفرق بصوته ليزجرهم ويخيفهم فينفذون متضاكين ثم يعودون إلى رأس أمرهم ، حتى كاد عقل السائق يطير . فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون ويضوضون ، والسائق يلوح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج إلى الطريق العام

أو الاهتمام إليه أحدث له رجة عصبية يحسن معها انتقاء أزعاجه إلى حين ، ولكن الصحف بدأت تكتب وتفيض ولا سبيل إلى كبس الصحف أو صرفها عن الموضوع ، فما كل يوم يختفى أدب كانت له شهرة واسعة ثم يظهر بعد أربعين سنة . وقد حرص جميل بك وسعيد أفندي على إخفاء مسكن الرجل ولكن الصحف لا يسمها أن تصبر على ذلك ، ومن حقها أن تعرف أين يسكن أو يقيم وإلا كانت معذورة إذا هي استرابت في الأمر كله . أضف إلى ذلك أن حفلة ستقام ويشهدها مئات من الخلق ؟ وقد كانت فكرة الحفلة هي التي أعانت جميل بك على اقناع الصحف بالصبر والانتظار وجعلت الموضوع شيقاً وخليقاً أن يجد القراء فيه مثل لذة الأساطير . ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر الأمر من كشف الحقيقة كلها ، فما العمل ... ؟ لهذا لجأ إلى سعيد وجميل بك ورجا منهما أن ينقذاه ويحولوا دون الفضيحة التي يجزع منها ولا يعرف له قدرة على إحتمالها . فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل ظهر يوم الحفلة بعد أن يلبسوه بذلة إلى بيت ابنه ومن هناك يذهبون به إلى الحفلة في المساء

— ٤ —

وجاء يوم الاحتفال فذهب إليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسه إياها فأبى واستكبر وغضب أيضاً ، وقال إنه ليست به حاجة إلى ثياب ولا إلى أحد من الناس ، وإنه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه إنسان ، وإنه ماعيب ثيابه على كل حال ؟ . أليس قد قابل بها الناس في مصر وفلسطين والشام والحجاز والأفغان والعراق وإيران ؟ فإذا كانت لا تسكن هؤلاء المعجبين به والذين

ابنه وراهه ، ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات ، وإنما كانت عيونهم على هذا الرجل المحرم ذى الثياب العتيقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة للماعة وإن كانت لا ترى إلا قليلا . وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه فآلى أن يرجع إلى غرفته . وعرض جميل بك المدعويين على الأستاذ بأسمائهم فصاحوه واحداً بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه ، وإن كانوا جميعاً قد ترفقوا به ، وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته . ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشتزاز أو الاستخفاف حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل

وأدبرت ألوان الطعام فكان الأستاذ يسأل عما يعرض عليه ما اسمه وكيف يصنع ، ولا يتناول إلا بقدر . وكان المدعوون في أول الأمر يحدجونهم بميوتهم ويثيرونه النظر ، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا إلى الطعام والحديث . ولكل شيء آخر . — انتهى الأكل ، وبدأت الخطب والقصائد ، والأستاذ مطرق كأنه بصغى ، وكان يهز رأسه من حين إلى حين كمن سره شيء — أو ما يسمع وانتهى هذا أبضا على طوله ، فهمس جميل بك في أذن الأستاذ : « ألا تحب أن تتفضل بكامة ترد بها عليهم ؟ »

فقال الأستاذ مستغرباً : « أما ؟ ... أقول كلمة ؟ أرد على ماذا ؟ ... إني ... الحقيقة أنى لم أكن مصغياً . لم يكن بالي اليهم »

فدعرج جميل بك — فما كان يتوقع هذا — ، وقال : « ولكن يا أستاذ لا بد من كلمة . لانستطيع أن نقول لهم إنك لم تكن مصغياً إلى كلامهم ... أرجو يا أستاذ ... كلمة شكر قصيرة ... القليل منك كثير »

ولا تطيل . ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده ، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رآه أعضاؤها ، وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورتانها . وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل ، وأشدهم قلقاً واضطراباً ، ولا سيما حين عرف إصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لأشفق عليه سميد أفندى أن يفاج فرأى الأستاذ التمعبي ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله ، ولكن الرجل كان جبلاً لا يتزعزع ، ولما قال : « أما كما أنا . فمن كان يقبلنى على علاتى فأهلاً به وإلا فانى أرجع إلى غرفتى ، فما طابت أن أجد ولا أردت أن يعرف ابنى أو سواء أنى على قيد الحياة »

« امسك سميد أفندى وأقصر » وكانت الحفلة في فندق من أكبر فنادق المدينة وفي أوسع قاعاتها ، وقد دعى إليها — أو على الأصح اشترك فيها — نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة . وكان أكثرهم قد بكر وجاء قبل الموعد . وجاء غير المدعويين — أو المشتركين — كثيرون وقفوا بحيث يرون الداخلين ؛ واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذى بعث بعد أربعين سنة ، والذى دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه . واستعد المصورون لاستقباله وتصويره في القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية

ثم أقبل أحد الشبان يعدو وقال : « جاء الأستاذ » فساد السكون وانقطع حتى الهمس ، وتملقت الأنفاس ، واشترأت الأعناق ، وانجذبت العيون إلى الباب لرؤية هذا الذى كأنما قام من القبر . ودخل الأستاذ في الثياب التى أبى سواها ، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسميد أفندى ، وأقبل

وجد بالتجربة الطويلة أن من العسير أن يهرب المرء في هذه الدنيا من الناس — ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص — المخلصين والمتكلمين والذين يطلون يوحون إلى نفوسهم أنهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك ... كلا لا سبيل إلى الهرب ... وطالب الفرار لا بد له من الجري الطويل والذهاب إلى أبعد مما كانت الحاجة تدعو إليه قبل نصف قرن . وهو يتكلم عن خبرة فيجب أن يصدقوه ، بل إن وجوده الليلة بينهم دليل مادي على تعذر الهرب في هذا الزمان الذي امتد به العمر إليه ... وكيف يهرب الانسان ؟ . إلى أى مكان يذهب وكل مكان فيه ناس ؟ . وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل ... ومن أى مكان يهرب ؟ إن الهرب الصحيح مستحيل ... وقد يستطيع المرء أن يعيش في الصين ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والاسكندرية ودمشق والقدس موجودة .. والهرب من الزمان أصعب ... نعم يتوهم المرء أنه يعيش لا في الحاضر بل في المستقبل والمستقبل ، وروح يمزى نفسه عما هو كأن يترجم أنه سيكون ، ويذهب بعمل أيقاب الدنيا ويجعلها كما ينبغي أن تكون « إلى أي كد لكم أنى أعرف هذا ، فقد فعلته — أعنى نوهته — وعشت في سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بما سيكون » وقال لهم : إن هذا كله عبث في عبث ، وأكدهم أنه لا مسوغ على الإطلاق لأن يفترض الانسان أن لاجنس الانسانى مستقبلاً — هذا أولاً — وثانياً أن مانسى له ونلح في طلبه أو تمنيه قد يكون مستحيل التحقيق . وهب تحفة ميسوراً فقد يتبين أنه ليس

فهو الأستاذ كتفه وقال « إن هذا غريب ! ! لقد كنت أفكر في ... ليلة قضيتها في كهف ... فقال جميل بك مقاطعاً : « فيما بعد ... بعد الحفلة نسمع ما كنت تفكر فيه ... لا بد أنه كان شيئاً غريباً ... ولكن الآن ... أرجو يا أستاذ » فالتفت إليه وقال : « ماذا فات أنهم كانوا يقولون : إلى لم أكن مصغياً » فقال جميل بك : « كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتبك العديدة ويصفون ما فيها ... كلام كثير يصعب أن ألخصه لك الآن . أنا أيضاً قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف ... نهايته ... لا بد من الرد فاصنع معروفاً » وكان سعيد — حلال المعضلات — قد أدرك وهو في مكانه أن في الأمر شيئاً ، نخب إلى جميل فلما عرف المسألة انحنى على الأستاذ وهمس في أذنه : « إن هؤلاء الناس خليقون أن يتوهموا أننا ضحكنا عليهم أو أننا محدوعون وأنت أنت الأستاذ التيمي وإنما أنت رجل غيره ينتحل اسمه فقم قل كلمة وإلا ... » ولم يتمها ، فقد نهض الأستاذ معبساً ورفع رأسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن ، وكانت لحيته تضطرب وشفته تختلج وكفاه لا تثبتان على المائدة التي وقف متمسداً عليها ، وطل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح في أثنائها أنه يمالج نفسه ويردها إلى السكون ويحاول أن يضبط أعصابه ، وبقى بها إلى الاتزان ، ثم فتح فمه وقال بصوت خافت : « أيها السادة » وسكت شيئاً وثبت حلقه ، فكأنه تمثال نصب في مكانه ، ثم ابتسم فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف ، ولم يشكرهم كما رجا منه جميل بك ، بل قال لهم في صراحة سرت فريفاً وساءت آخرين إنه

كأنما أراد أن ينتقم لنفسه ، أو أن يفضيها إليهم
ليتركوه بمسد ذلك في سلام ... ولم يطق البعض
المقام ، أو طوله ، فتسال خارجا وتبمه غيره ، وغيره ،
حتى لم يبق إلا دون النصف

والسكن شيء آخر ... عاد الأستاذ الى غرفته
لا إلى بيت ابنه واستلقى على فراشه ثيابه ، فقد
أضناه الكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة
وفي الصباح جمع ثيابه وأشياءه وانتقل الى
ربيع آخر

وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة
التي طلت أياما تدعو لها وتزوج وفي صدر أكثرها
خطبته التي عنى سعيد بتدوينها ؛ فلم يجد الأستاذ
وأعياء أن يعرف أين ذهب ، فأسرع الى ابنه على
بك يخبره ويسأله ما العمل ؟ فقال على بك وهو
يرسل الدخان في الهواء : « أظن أن الواجب أن
نحترم إرادته ونعفيه من الانتقال عليه »

ابراهيم عبد القادر المازني

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

التمن ١٢ قرشاً

مما يسيئه أو يرتاح إليه أو يرضى به الجنس الانساني .
وسألهم هل هم يعتقدون أن الانسان ينشد السعادة ؟
ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التي لا تزول
ولا تتغير ممكنة ألا يستفطعها الانسان ويفرق من
تحقيقها ؟ على أن التفكير في المستقبل والسعي له
لا يمنان أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده ...
وهناك مهرب آخر ، إذ يتملق المرء بالمثل العليا
وصور السكال ، ولكن اللجوء الى الخيال لا يفي
الحقائق المحيطة بالانسان ... وانهى الى أن المهرب
الوحيد الصحيح لا يكون في الحياة ، وهذا لا يمد
مهرباً لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بأدراكه . إنه
استطاع المهرب ، ولو كان هذا مهرباً حقيقياً للجأ
إليه . وابتسم وقال إنه يرجو ألا ياجئوه الى هذا
الذي ليس مهرباً ...

واستطرد بطريقة ما إلى كتبه وما يلقى من
التكريم من أجهلها ، فقال : انه واثق أن أكثر
الموجودين لم يسموا باسمه ولم يكونوا يعلمون أن له
كتباً ، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أرادته .
وقد يكون هذا عيبه هو كما قد يكون عيبهم هم ،
ولكنه الواقع على كل حال . والمجتمع لا ينتظم أمره
إلا بالجمالة ، وهي شيء حسن في ذاته ولكنه هو
فرغ من ذلك كله وأخرجته سنه من المجتمع وأعفته
من ضروراته ؛ وهو ليس من هذا الزمن فيحسن أن
يرتد ويتراجع الى ما أخرجه منه ، لأنه ليس إلا قطعة
متخلفة من زمن سابق ، ولا شك أنهم أدرکوا
غلاطتهم حين خرجوا به الى زمانهم ...

وظل بهضب على هذا النحو الذي لم يكن
منتظراً ولا كان في حساب أحد ؛ وطال الأمر فل
الناس ، وأحس هو الهمس فلم يترفق بالذين ضجروا

قلب الحبل

من القصص الربطاني

بقلم الأستاذ محمد الخفيف

الشقاء ؛ لقد نجحت
أمه فيما ذهبت إليه ،
واقدم هو لها جبل
عليه من الكسل عن
مقاومة أغراضها ، كما
خذت عزيمته فلم

يستطع أن يتولى بنفسه شؤون نفسه ؛ وكان قليل الثقة
بكفايته أو بقدرة على تنفيذ شيء ، وراحت الأم
تنصح له حيناً رآته مقبلاً على مواجهة الحياة ؛ وكثيراً
ما ابتدرته بقولها : اتخذ يابني من (إيرين) زوجاً لك .
إنها الزوجة التي خلقت لك ، بل إنها المرأة الوحيدة
التي تستطيع أن تجعلها شريكاً حياتك . نعم إنها
ليست فارحة الجمال ولكنها جادة مجدة ... كذلك
ليست باثيرة وإن لم تكن فقيرة ، وأظنك لا يمكن
أن ترى في زواجك إلى المال . إنها ستحفظ لك
بيناً طيباً وتعنى بتربية أطفالك ؛ وما عسى أن تطالب
فوق ذلك ؟ إن مما لا يحمد لك أن تشايع خيالك
وأحلامك إلى ذلك الشيء الذي تسميه ... »

على أنه في الواقع لم يشايع أحلاماً أو يساير
خيالاً قط . وقد تزوج من إيرين ليرضى بذلك أمه .
ثم أخذ يوطن نفسه على أن يألف هذا الضرب من
السعادة التي أشارت إليها

والكنها كانت سعادة فائرة مصفارة كادية ؛ على
أن أمه كانت تعلم حق العلم ماذا تعنى بقولها حينما
أشارت إلى الخيال والأحلام ، فكان حلم جوجيلمو
هو ابنة عمته آن ، وقد تزوجت تلك العمّة من رجل
غني من رجال الأعمال . وكان جوجيلمو يتردد
على منزل عمته وهو غلام ، ولكنه حينما طار شاربه
حالت بينه وبين ذهابه إلى حيث كانت تقيم آن

سمع جوجيلمو
رنين الجرس مؤذناً
بذخول شخص ، كما
سمع حديثاً في الجو ،
ولكنه لم يتحرك .
ومن عسى أن يكون

ذلك الشخص ؟ أهو صبي الصيدلي ؟ أهو الخباز ؟
أم هي الخادمة ... ؟ إنه ليعرف تفاصيل حياته البسيطة
المملولة معرفة خبرة ووثوق وهو في حجرته المأوى ،
حجرة دراسته يسمع من الأصوات كل يوم ما يستدل
به على ما يجري حوله من شؤون الحياة ؛ ولقد ألف
تلك الأصوات الرتيبة أمة تامة ، حتى إن ما حدث
في ذلك اليوم من أمور جديدة قد اتخذ في ذهنه
صورة ما ألف من قبل كأنه رآه بالأمس ، ولذلك لم
يثر في نفسه اهتماماً خاصاً . فهناك الصيدلي مثلاً ،
وهو رجل حديث مقدمه ولله الحمد فلا يدري من
الأمور شيئاً ، ولن يستطيع أن يحجز الأمور عن
وجهتها . وراح صاحبا يتحدث نفسه : « ستأتي
هنا بعد برهة السنيورا أكاردي ثم يأتي الطبيب ؛
وبعد ذلك يتزايد غمر الجرس فترة ، ثم في ساعة
أو ساعتين ينتهي كل شيء . كأن لم يكن هناك شيء . »
والكي يهدد لهفته ، فتج كتاباً وحول إليه
بصره ، منصرفاً عن النظر إلى حديقته الصغيرة
التي جدد الربيع خضرتها يومئذ ؛ وكانت حجرة
دراسته حياته محدودة متواضعة ، ولقد أبحه فكره
وهو يقرأ إلى تلك الحياة

زوج في الخامسة والعشرين وهو الآن في
الثلاثين ... خمسة أعوام من الوجود الذي لا يميزه
شيء ، خمسة أعوام لا هي إلى السعادة ولا هي إلى

الوجود بأنفس جديدة هي التي زادت حيوية ونشاطا
أنت سريعا على قدر ما استطعت ... ما حالها؟
بخير ... هون عليك لا تضطرب ، لو كنت مكانك
لخرجت من المنزل برهة أو جلست هادئا في حجرتي ،
سأعود إليك بعد ساعة أو ساعتين وأطامك على
جالية الأمر »

وابتسم الطبيب ثم دخل حجرة المريضة ورجع
صاحبه الى حجرتة . وقد فكر بعد برهة في الخروج
من المنزل ، ولكن دافعا خفيا لم يتبينه ، دافعا
مكونا من الخوف من جهة ، ومن توقع ما يسر من
جهة أخرى ، أقعده عن الخروج ، فلبث في مكانه
مفكرا ، ولكن أفكاره القديمة لم تلبث أن عاودته ؛
وكان عجبا أن تعاوده في الساعة التي يرى فيها وجوده
يتصل بالمستقبل في حياة وايدة المنتظر ، فتقذف به
في أعماق الماضي خطوة بعد خطوة

وما كان الماضي غير آن ... آن دائما ... آن واسمها
وذاتها وكل ما عمت بصلة اليها

لقد رآها مرات بعد زواجه ، ووجد أنها
لم تتزوج حتى ذلك الوقت احتفاظا بحجرتها ،
كما اعتاد أن يسميها تقول ذلك ضاحكة . وهي
الآن في السابعة والعشرين لا تزال كما عهدتها من
قبل مرحلة مرهقة . وكانت تزور بيته بين حين
 وآخر حيث اتصت أسباب الودة بينها وبين
إيرين ؛ على أنها لم تكن تكثير من الحديث معه وكان
قصارى ما تبديه نحوه من الملاطفة ابتسامة أو اثنتين ،
ثم تمد يدها اليه فتصافحه مصافحة الأصدقاء وتنطق
في سبيلها

وكان يعتقد جوجليليو أن أمه أخطأت التقدير ،

وساوس عمته ، وما كان بين المنزلين من فرق كبير
في الثراء . نعم كان حلم جوجليليو هو تلك الفتاة
الجميلة الطويلة المشوقة الفسد التي ينبعث العطر
دائما من ثيابها ، ذلك الحلم الذي جاهدت أمه في
تبديده ... « وماذا كانت تنتظر آن من رجل
مثله ؟ تتزوج منه !! يا إله الناس إنها تنظر الى ما هو
أبعد من ذلك ... تحبه ؟ ألم يتبين أنها كانت أبدا
تتمتع نفسها دون أن تعيره التفاتة أو تنجبه لحظة
بفكرها إليه ؟ »

وكانت تلك الكلمات كفيلة بالقضاء على حلمه
الجميل . وهكذا تزوج من إيرين ؛ والآن بعد سنين
من السعادة الهزيلة الفاترة ترى إيرين موشكة أن
تنجب غلاما . ولم يقابل جوجليليو ذلك أول الأمر
بكثير من الحماس إذ رأى الزمن يأتي له بشخص
آخر يحول بينه وبين الأحلام ، ولكنه أحس
بقلبه يعتلي بالغبطة كلما تصرمت الشهور . ولد ؟
وما الولد ! أليس هو الشيء الوحيد الذي يعمل
وجودنا ؟ ثم إنه يرى فيه خير منحة بعد ما لاقاه
في ماضى أيامه من أشجان وآلام ، وأحسن عوض
عما فقد من الحب والسعادة

سهر من مكانه هذه المرة وترك حجرتة وأنى
نفسه في المر ؛ وهناك سطمت في أنفه رائحة العقاقير
المنبثة من حجرة زوجته ؛ ولو أنه أنصت لسمع
أنينها ، ولكن صوتا قويا هادئا قطع عليه نيار
فكرهم فجأة ... « هأنذا أنت ، هأنذا » وكان
ذلك هو الطبيب رفيق صباه الذي كثيرا ما تردد على
منزله . كان بدينا مرحا مشبع الوجه من الحمة .
ولعل وظيفته هذه التي كانت تنحصر في إمداد

« أنت في حاجة الى شيء ؟ هل أستطيع أن أجعل من وجودي فائدة لك ؟ »

وحاء دوره الآن ليحيب ، فان دائرة صمهما قد اتسعت حتى تركتهما حائرين ؛ وخيل الى كليهما كأنه يستمع الى صوت الآخر ، وكأنهما عادت اليهما ذكرى عبارات قيات من قبل ولكنها نسيت الآن أو امتلأ بها الفكر ، ولكن لم يتحرك قط بها اللسان

وأخيراً قطع جوجليلو هذا السكون فجأة بسؤال غريب ، ظهر أكثر غرابة لصدوره من شخص خجول مثله ؛ ولقد كانت وقعه على آن كقبلة لم يحسن أدائها :

« أنت جميلة كاملة يا آن ... لماذا لم تزوجي حتى الآن ؟ »

ولقد ألهم خدائها من الخجل ، بل لقد ظهر وجهها كله والجزء العاري من عنقها تحت الفراء مشبوب الحمرة ، ولكنها حاولت أن تبتسم لتخفي تلك السحابة التي أظلمت في عينيها

« فم تفكر الآن يا جوجليلو ؟ لقد بقيت عذراء لأنه ... لأنني لم أجداً أحداً يحطبنى ... »

ونحك جوجليلو بدوره ضحكة من قلبه . لم نجدى أحداً ؛ يا عجباً ؛ إن وراءها من عشاق الشباب ما يفوق عددهم عدد من يتوددون الى جميع فتيات المدينة مجتمعات

« من أنباك هذا ؟ »

« أنبأني به أمي »

« إن أمك لم تدر من أمر هذه المسألة شيئاً ... ولكن إذا فلتقل إلى أقسمت قسماً » وأخذت

اذ لم تكن آن كما اتضح له في شيء مما تصوره من الزهو والكبرياء . ولكنها في الحق لم تكن امرأة عاطفة

هل زاد عدد الناس في الردهة ؟ لقد سمع جوجليلو صوت شخص يكلم الخادمة في همس . ولقد جعله هذا الصوت يتفرض في مكانه ، ثم فتح باب حجراته وظهرت له رأس لطيف

« أنها أنا يا جوجليلو ، أتأذن لي بالدخول ؟ ونظر جوجليلو الى القمطر في اختلاجة غريبة لم يستطع اخفاءها ، وكأنها كان يجب أن يغيب أفكاره في ذلك القمطر ، فافقد كانت اختلاجة عينه كاختلاجة من يرى متابسا بجرعة ؛ ولكن آن تقدمت نحوه في هدوء وهيون

« لقد جئت لأسأل ما حال إيرين الآن » وبدا على جوجليلو أنه شارد اللب الى حد أنها نظرت اليه نظرة عطف قائلة :

« جوجليلو أيها المسكين ما أراك لا حائراً ... » ورد صاحبها مقمناً : « لا . فالطبيب عندها »

ولم تلبث أن التفت في رأسه فجأة أفكاره حول هذه الأنسة التي يراها الآن تظهر اهتمامها بأصريت بصلة الى الحب والحياة ، فزادته تلك الأفكار ارتباكاً واختلس نظرة الى جسم آن البض الجميل ، ذلك الجسم الذي رآه قد هيأ أحسن تهينة لحمل الأجنة

« إجلسي لدى برهة يا آن ... فاني أحمد لك مجيئك الساعة »

وسمعت لصوته زبرات غريبة ، وتغير تغيراً عجيباً كما تتغير الموسيقى بتغيير اللحن . ونظرت اليه آن في دهش وظلت صامته برهة ثم سألته :

إليه كأنه يرى الواقع شاخصاً أمامه يسأله : « ألا تفهم ؟ »

لا . إنه لم يفهم . لقد أسلم قياده بالأمس ورفض أن يقوده ضلال أمه . وهكذا ألقي نفسه على شفا منحدر لم يجد بداً من النزول إلى قراره . والآن يرى الماضي في ضوءه الحقيقي . ويرى الآن أنه حينما كان يكتر من الذهاب يرى أن كان وجهها يتهلل بشراً وفرحاً ، وأنه حينما كان يغيب عنها كانت ترى مكتئبة لذلك . وأعقب ذلك مرضها ؛ ثم توالى السنوات التي أغفل فيها أمرها ، فلم تبدأ من أن ترفض في عناد أن تتزوج من غيره ولكن لم ظلت ساكنة لا تخبره عن شيء ؟ أكان في ذلك جرح لكبريائها ؛ أم هل كانت تخشى المذلة لا . إنها لم تفكر في شيء من هذا ..

والآن ؟ هذا البوح المبالغ ... واحرار وجهها من الحجل ... ويدها الرطمة ... ألا إنها لا تزال تحبه ... وحدثته نفسه قائلة « لا ليس هذا ممكناً » ولكن قلبه كان ينهض بين جنبيه عما يؤكد الغريزة . كان ذلك كذلك ؛ كان ذلك كذلك ...

وبينا هو كذلك إذ دوت في أرجاء المنزل صرخة ألم قطعت عليه تيار أفكاره وأعادته ثانية إلى حقائق الحياة ، إلى الواقع الذي لا يشوبه خيال ؛ ففي تلك اللحظة أوشك أن يولد له غلام ، وهو قطعة منه تتدبها حياته في سجل الوجود وتتصل بالمستقبل ، فعجب كيف يحزن على ما قاله من سمادة الحب بينما هو مقبل على رؤية ابن له . وأي سرور أعظم من أن يرى المرء فائدة من كبده بين يديه ؟ ولكن آن ... آن

آن تضحك ثانية واسكنه كان فحكا تخالطه الحيرة « قسماً ؟ ولسكناً حينما كنا صغيرين نلذ بمعا

كفت دائماً ترى أن الشخص الآخر ... »

« والسكن المرء بقسم بعد ذلك »

« ومتى كان قسمك ؟ »

« لا أذكر ذلك تماماً ... وإنما أظنه منذ

خمس أعوام أو ستة ... »

« حينما تزوجت أما ... أنعمين ذلك ؟ »

وهنا صمتت الفتاة ، وبدأت عليها أمارات الارتياب وعضت على شفتيها ، إذ تبينت أن ما قالت به هو الغباء بعينه

آه . نعم . أذكر أنك كنت مريضة تلك

السنة ... ولم يكن يعلم أحد ما حقيقة الأمر ...

أذكر ذلك - كنت وإيرين في سويسرا ...

وسمعت بذلك بعد حين ... « فهل » وتساءل باسمًا

« فهل كان عزمك وقسمك يومئذ ؟ »

« إلى اللقاء يا جوجايلو ... إلى ذاهبة

وسأجيء ثانية ... أرجو أن تدعوني « بالتليفون »

وتخبرني ما يكون من أمر إيرين »

« نعم سأخبرك . ألا تصالحيني ؟ »

« ها هي ذي يدي إذا »

مدت إليه يدها فبرزها مطبلاً ذلك على غير

إرادته . ما ذاك ؟ لم كانت يدها هكذا ترنم ؟

ولما شد عليها بعد ذلك أكثر خيل إليه وقد

خالجه شعور مبالغ كما لو أنها أسلمت نفسها إليه

منهزمة ...

ألقي نفسه وحيداً ، ولكن العجب والرعب

استوليا عليه مما جرؤ على قوله أو التفكير فيه ، وخيل

سعادة قلبه من الحب . سيتغير كل شيء ، وسيستجدد كل شيء . . . نعم سيجعل محل تلك السعادة الهزيلة الفاترة سعادة رائحة ماضرة ، سعادة تحقق كل ما تصبو نفسه إليه . إذا ماتت إيرين فسيأخذ آن زوجته . ليس أمامه إلا أن يختار الآن . ومن ذا يلومه ؟ أليس يسير وفق قوانين الحياة ، وما تقتضيه غريزة النوع الانساني ؟

وصاح جوجاييلو متأوهاً : « يا إله السماء ! »
وحدثه قلبه ملاحاً : « انت لا تحب زوجك .
وإذا بقيت فسوف تمضي السنون وأنت تعيش مع امرأة لا ترى للحياة معنى إلى جانبها . فسكر مرة ثانية كيف فقدت المرأة الأخرى ... وكيف كان ذلك نتيجة جهلك وضعفك ... هيا هيا كلمتان ... انطق ... أترى الأمر هكذا صعباً ؟
انطق أيها الأحمق الغبي وقل : « نج الوليد »
ولكنه رفع رأسه ، وعلى وجهه صفرة خفيفة ووجه الخطاب إلى الطبيب قائلاً في ثبات :
« نج الأم »

الخطيب

الجميلة الساحرة ؟ إن طيفها يملأ ناظره ، وسحرتها إشيع في نفسه . ياله من موقف ! إنه يرى نفسه بين سعادتين : سعادة أفلتت منه وصارت من تراث الماضي وذكرياته ، وسعادة توشك أن تحيط به ، فيمتلئ قلبه بهجة . ولكن ... ولكن ألا يمكن أن يكون منهما مزيج فتكمل أحدهما الأخرى ؟
نادى الطبيب جوجاييلو ووقف أمامه مصفراً مضطرباً : وقفز جوجاييلو متسائلاً في لهفة :

« ماذا حدث ؟ هل في الأمر شيء ؟ أجبتني ! »
« نعم ، يؤلمني أن أجيبك أن الخطر محقق بها فافقد طرات مضاعفات من حيث لا أدري ، ولكن لا يزال هناك أمل ، أمل بتأخير فيما تستطيع الجراحة أن تفعل . لقد رأيت الواجب بقضي على أن أخبرك ... »

تخبر جوجاييلو وفكر في زوجه ، تلك المرأة المسكينة التي تجود بحياتها في عذاب وألم ، وأردف الطبيب قائلاً :

« هل لك أنت نجيبني عما أسألك عنه ؟ إن ضميرك هو الذي يريك الآن ماذا يجب أن تفعل إذا كان لا يمكنني إلا إنقاذ أحدهما : الأم أو الوليد . فمن تختار ؟ »

« ماذا ؟ » « ماذا تقول ؟ » هكذا راح جوجاييلو يتساءل صارخاً وعلى وجهه صفرة كصفرة الموت فقال الطبيب : « تلك هي الحقيقة ، فلا يستطيع العلم أن ينجي الاثنين معاً ؛ فاما الأم وإما الوليد . فذكر برهة ثم أخبرني ... »

« نظر جوجاييلو نظرة فرأى حياته الجديدة جليلة أمامه ، تلك الحياة التي ساقها إليه القدر : ولد هو وأمله في الحياة وغابته من الوجود ، ثم آن وهي

آلام فرتر

لشاعر الفيلسوف جوتة الألماني

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد محمد الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد
وتنمها ١٥ قرشاً

لَيْلُ نَوْرًا

قصته سرمد من أساطير القصص الشعرية

للكاتب المتاني برجر

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي

قبلة اللقاء . فجملت
بحسب الصفوف طرداً
وعكساً في كل ناحية ،
وتسائل العائدين ، فما
تقع أحد غلتها بنياً عن
زوجها المحبوب ...
وهاهم أولاء . قد
انصرفوا . فارتعت على

الأرض تمزق شمرها
وتتمرغ مشدوهة هاذية
فبادرت أمها إليها :
« لك الله ! ماذا دهاك
يا بني السكينة ؟ » وضعتها
إلى صدرها

— آه يا أماء ، يا أماء ،
لقد مات ! مات ! عفا
على الدنيا وعلى كل شيء .
لارحمة عند الله . يا للويل !

هذا ضرب من القصص الشعرية ، تدار موضوعاته
على الأسطورة العجيبة أو الواقعة الرائعة ، ويجري
نظمه على لسان من التقاطيع والترديد ، تزيين المعاني
والصور قوة على قوة من التعيين والتوكيد
والشعاع الانان في هذا الخيال لا يسبقهم سابق ،
ولا يلحق بهم لاحق . فلهذا فيه وجدته نصب السبق
وفضل التبريز

وهذه القطعة من أروع الأمثلة في هذا الباب .
ولا يدانيها غير أمثالها في شعر جوتة وشير ، ولها
شهرة كبرى في الأدب العالمي ، وقد ترجمت إلى كل
اللغات عدة مرات ، وأوحى إلى أعلام الرسامين
بدائع اللوحات ، ولشكبار الموسيقيين أقوى الألحان

يا ويلتاه !

— كان الله في عونك وعفا عنك ! يا بني ،
إضرعي إلى رب السموات . الخير فيما يفعله . وإن يمنع
عنا غونه

— آه يا أماء ، يا أماء ! إنك واهمة . إن الله
تخلي عني . وهل أغنى ما أسلفت من صلوات أفذاذا
هي مغنية اليوم عني ؟

— اللهم رحماك ! من يعرف الله معرفة اليقين
يوقن أنه لا يتخلى عن عباده . وإن سر القربان
المقدس ما مسح عنك أو جاعك كلها باذنه

— آه يا أماء ! أنى لقربان أن يرد الحياة إلى الوقي ...

في مطلع الفجر
هبت « لينورا » آفة
من أحلام مزججة ،
وهي تسائل نفسها :
« ولهم ، يا زوجي !
أزرى صرعى الردى
ونفذيك سهم القضاء ،
أومال بك الهوى نخت

ميتاق وأخفرت عهدى ؟
أزرى تطول غيبتك إلى
أبعد من هذا : »

فانه في ليلة العرس
نفسها ارتحل الزوج في
ركاب الملك فردريك إلى
ميدان القتال عند مدينة
براغ ، ولم يظالها بخبر
عن صحته من ذلك الحين
ولكن الخصمين الملك

والإمبراطورة تولاهما السكلال من هذه المارك
الدائمة ، وسكنت ثأرتهم مارويداً ، وفي آخر الأمر
عقد الصالح . وارتد كلا الجيشين عائدين إلى
الأوطان بين نفخ الأبواق ورنات الصنوج ،
متوجين بالأكاليل من أوراق الشجر الناضرة

وماجت الطرقات والجسور من كل حدب
بأفواج لا ينقطع فيضها من الشباب والشيب
يهرعون إلى اقيام ، وكم هتف أبناء وزوجات عند
رؤية عائلهم : أن الحمد لله . ورامت كل خطيبة بين
ذراعي خطيبها تغمغم : مرحباً بك ! إلا « لينورا »
— وأسفاه ! فقد انتظرت طويلاً في غير طائل

— ماذا ! ولهم ! أهو أنت ؟ في هذه الساعة
التأخرة من الليل ! لقد كنت 'ساهرة أبكى ...
وأأسفاه ! شدم تأملت ... ومن أين أنت آت
راكباً جوادك ؟

— نحن لا نعتلى الجواد إلا في منتصف الليل .
وإني قادم من أقاصي بوهيميا . وهذا علة وصولي
إليك متأخراً لأمضى بك ممي
— ولكن ، يا ولهم ! ألا تدخل هنا أولاً ،
فأنتي أسمع الريح تصفر في الغابة ...

— دعى الريح تصفر في الغابة يا صديقتي الحسنة .
فإذا بعينينا من صفير الريح . إن جوادى يفحص
الأرض بحوافره ، والمهاجرين في شاكلتيه ؛ وليس
في الامكان بقاى هنا . هيا البدي نعلك يا لينورا ،
وتعالى اركبي رديفتي على صهوة الجواد ، فأن أمامنا
مائة فرسخ تقطعها قبل أن نبلغ إلى مقرنا
— وأأسفاه ! كيف تريد أن تقطع الليلة مائة
فرسخ لنبلغ إلى مقرنا ؟ إسمع ، هذه دقات الناقوس
تؤذن أيضاً بانتصاف الليل

— واهاً ! واهاً ! القمر مشرقٌ واضح ...
وما أمرعنا في السرى نحن الأشباح . وإني أراهن
أن سأصل بك الليلة
— خبرني إذا أين مقرك ، وكيف فراش عرسك ؟
— بعيد . جد بعيد من هنا ... ساكن ، رطب ،
ضيق ، يتكون من ستة ألواح كبار واثنتين أصغر حجماً
— وهل فيه متسع لي ؟

— لانا معاً ؟ فتعالى يا لينورا . إركبي رديفتي
على صهوة الجواد ؛ فإني وليلة العرس مهابة ،
والمدعوون في انتظارنا

فلبست الصبية نعلها ، وبادرت بالخروج ،
وقفزت على ردف الجواد ، ولفت ذراعين لها في
بياض السوسن حول الفارس الذي تحبه ؛ وانطلق

— مهلاً يا بينتي . فما يدريك ؟ لعله خان ودك
وعقد أواصر الألفة بفتاة غيرك فانسيه ، وأعرضي
عن ذكره . هلى ! لن يحسن الله عقباه . وسيكون
مثنوا جهنم وبئس المصير

— آه ، يا أماء ، يا أماء ، من مات فقد مات .
ومن فقدناه فقد فقدناه أبد الدهر . فلم يبق لي غير
الردى مورداً . ليتني لم أولد ولم أك شيئاً ! يا شملة
حياتي انظفئي ، انظفئي في ظلمات الدم الرهيبة .
فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسني !

— اللهم رحماك ! لا تحاسب ابنتي على ما فرط
منها . إنها لا تتي ما تقول . فلا تحصبه عليها ذنباً
وآثاماً . وأنت يا بينتي ، تناسي هموم الأرض واذكري
الله ونعيم السماء . فما يزال زوج في السموات

— آه يا أماء ، ما النعيم ؟ يا أماء ، ما الجحيم ؟
النعيم حينما كان ولهم ، والجحيم حيث لا يكون .
انظفئي يا شملة حياتي في ظلمات الدم الرهيبة .
فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسني !

وهكذا كانت سورة اليأس الجامع تمزق قلبها
وتفري روحها . فهي تقدح في العناية الآلهية
وتنمى عليها . وما زال هذا حالها ، تدق صدرها
تفجئاً وارتياعاً ، وتقلب كفيها توجعاً وانتياحاً ،
إلى أن جنحت الشمس للغيب ، ودلفت النجوم
الزواهر في قبة الفلك

ولكن ... أى حس هذا في جنح الليل خارج
المنزل ؟ طق ! طق ! طق ! لكانه وقع سنابك
جواد ... ثم كأن فارساً يترجل عنه فتسمع صائلة
سلاحه ... وهو ذا بصمد درج السلم ... صه ،
صه ... الجرس يرن رنيناً رقيقاً ... ثم صوت رفيق
يقول من خلال الباب :

— هيا ! هيا ! افتحي يا صديقتي الحسنة ! أساهرة
أنت أم نائمة ؟ ومستغرقة في فرحة أم شرقة بالدموع ؟

أخائفـة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق
وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح
أتخافين أشباح الموتى ؟

— أواه ، مالك وللموتى ؟ دعهم فى سلام
— أنظرى : أنظرى ! أترين الى جانب هاتيك
المشائى أشباحاً تتحرك وهمى فى رقة الهواء بنصفها
نور القمر ويديها للاميان ؟ انها ترقص حول عجلة
التعذيب . إيه أيها الأنجاس المناكيد ! تملوا اتبعونى
ولترقصوا فى حفلة عرسى ... إننا ذاهبون الى وليمة
العرس الزاهرة

فاندفع الرهط كله وراءهم ، ولندافعـه مثل
خشيشة الريح فى الورق الجاف ، وانطلق الجواد
ينهب الأرض نهباً ... والجواد والفارس تكاد
تنقطع أنفاسهما ، والحصى بقدح الشرر تحتها
واهاً ! ما أسرع تطاير كل شيء ، كل ما يجلوه
ضوء القمر من حولهم ! ... ما أسرع انسياب
السما والنجوم من فوق رؤسهم !

— أخائفـة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق
وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح ...
— آه يا ربى ! مالك وللموتى ، دعهم فى سلام
— تجلدا يا جوادى الأسحـم ! كأنى بالديك
يصيح مؤذناً بوشك انبلاج النور ، وعمـا قليل
تكون الساعة الرملية قد أفرغت ما فيها ... انى لأحس
نسبات الصباح ... الوحى الوحى يا جوادى ! ...
لقد أشرفنا ، لقد أشرفنا على غاية رحلتنا ...
سينكشف لك فراش عرسنا ... ما أسرع
الأشباح ... لقد وصلنا

واندفع — مطلقاً العنان لجواده — الى باب
حديدى كبير ، وقرعه بمذبة سوطه قرعة خفيفة
فانفضت المزاليج وانفتح الباب على مصراعيه
بصر صرياً . وانطلق الجواد كالشهاب حاملاً

الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً . ودوى وقع
سنابكه . وكان الجواد والفارس تكاد تنقطع
أنفاسهما ، والحصى بقدح الشرر تحتها
واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج
والمزارع بمنة ويسرة أثناء كرها ، وما أشد قعقة
الجسور تحتها !

— أخائفـة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق
وضاح ... مرحى ، كذا تكون سرعة الأشباح
أتخافين أشباح الموتى ؟

— لا ... ولكن مالك وللموتى ؟ دعهم فى
سلام ... ترى ما هذه الضوضاء وهذه الأناشيد ؟
والى أين تنجه تلك الأسراب من الغربان ، صه : ...
هاتيك دقات ناقوس ، وهذه أناشيد جنازة
— إنه ميت عندما يراد دفنه

واقتربت الجنازة وتمالت الأناشيد مرردة
الأصـداء كالنقيق الأجنس فى جنبات المغايض
والمستنقعات

— عليكم بعد منتصف الليل أن تدفنوا الجثة
مشيمة بالنواح والأناشيد المعولة . أما أنا فذهاب
بزوجتى ، وإنى أدعوكم جميعاً الى وليمة العرس .
تعال أيها الرتل ، أنت وفرقتك . تقدموا واصدحوا
بترنيمة الزفاف . وأنت أيها الكاهن لتبارك زواجنا
عندئذ انقطع النواح والأناشيد ... واختفى
النمـش ، وسار مشيمو الجنازة وراء المروسين تلبية
للدعوة ... مرحى ! مرحى ! إنهم ليلاحقون الجواد
عن كثب . وانطلق الجواد ركضاً ينهب الأرض
نهباً ، ودوى وقع سنابكه ... والجواد والفارس تكاد
تنقطع أنفاسهما ، والحصى بقدح الشرر تحتها

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج
والمزارع بمنة ويسرة أثناء كرها ، وما أسرع تطاير
القرى والساكن والمدن !



يَوْمِي أَنَا فِي الْإِرْيَافِ

لِلأَسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

١٢ أكتوبر ...

وأوصيته أن يعضى بالمساعد إلى منزله ، وحيث الأمور وزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة للدولة فوجدت القاضي في الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضي حتى وجعت ؛ ففي المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم في القاهرة ولا يأتي إلا يوم الجلسة في أول قطار ، ويسرع في نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذي يعود إلى القاهرة . ومهما زادت

لساعدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالي يبابها مكدمين كالذباب . وكان مساعدي قد خر إلى جوارى صريع الكرى ، ولم يهمني أمره ، ولم يدر بخلدني قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يمتد بعد وصل الليل بالهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلأترفقن به في أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف ،

وتصوّبت من أجزاء الفضاء صيحات وصيحات ؛ ونصعدت من القبور تحت أطباق الثرى أنات وأنات نفخى قلب لينورا خفقة انتقلت بها من الحياة إلى الموت

فتحالت الأرواح تحت ضوء القمر حولها ، ورقصوا وهم ينشدون : « الصبر ! الصبر ! مهما هاض الألم قلبك وصدع كبذك ، فلا تعيبي في حق رب السموات أبداً . هأنث ذى قد أسلمت جسمك عفا الله عن نفسك »
عبد الرحمن صدقي

صاحبه بين قبور متكاثرة تنهدى تحت ضوء القمر في كل ناحية

هنا ، باللول ! وقمت في التو واللحظة آيةً مربعة : تساقطت عباءنا الفارس إرباً إرباً كالعهن المحروق . ولم تبق من هامته إلا ججمة معروقة ؛ وحال جسمه هيكلًا عظيمًا محتقياً ساعةً رمائيةً ومعتقلاً منجلاً

وشب الجواد الأسحج حنقاً ونفث شرراً . وعلى حين بقة ساخ وغاب في أعماق الأرض ؛

والتهموت بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالما تبرم هذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدري العلة . فكننت أقول فى نفسى : « إرفع أسماكك تر ما يسرك » ، وبدأ المحضر ينادى أسماء التهمين من ورقة فى يده . وقزمان افندى المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو إذا نادى تعاطف فى حركاته وإشاراته وصوته ، والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الأمر الناهى ، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولكن فى مد وغن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين . وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : « أنت يا شعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات ، كله أكل عيش »

ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق ؛ فرفع القاضى رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه ، وقال للمائل بين يديه :

- أنت يا رجل خالفت لأتحة السلاخانات بأن

أجريت ذبح خروف خارج السلاخانة

- يا سيدى القاضى ، الخروف ... ذبحناه ، ولا مؤاخذه ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة ظهور الولد

- غرامة عشرين « قرش » . غيره ...

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى ... مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مغى الحكم فيه ... وقد تركت القاضى يحكم وجعات أرواح عن نفسى

القضايا وبلغ عددها ثلث هذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو رجل ذوسواس ، وهو بمقد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطل ، فى نظر القضايا خشية المجلة والفاط ؛ ولملحه أيضاً يريد شغل وقته وتسلية فحرجه فى هذا الريف ؛ وايس أمامه قطار يحرق على ميماده ؛ فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سميت فيها فلا يتفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيبنى جلسته من العذاب ، فهى الحبس بعينه . وكأنما قضى على أن أربط إلى منصتى لأبدي حراكا طول النهار ، وقد وضع حول عنق وتحت أبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام اللهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها علينا فنندفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟

وجمت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت فى جلسة لا ترحم بمدايلة كلها عمل . واست أدردى ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة ذلك القاضى السريع

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعات أن نظرت فى « الرول » فإذا أمامنا سبعون مخالفة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفى أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : إن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون

القانون : فأشاح القاضي بوجهه عنى وأطرق قليلاً
وهز رأسه ثم قال فى سرعة من يرمى عن كاهله حملاً :
— غرامة عشرين :. غيره

فنادى المحضرامم امرأة ، فحضرت موسم ريفية
قد زججت حاجبها بمود نقاب ، وطالت وجنتها
بذلك الأحمر الفاقع الذى تطلّى به صناديق الدخان ،
« السمسون » وصورت بالوشم صورة قلب يخترقه
سهم على ذراعها العارية ، ووضعت فى معصمها
أساور و « غوايش » من المعدن ومن الزجاج الملون .
فنظر إليها القاضي وقال :

— أنت متهمة بأنك وقفت أمام باب منزلك
فوضعت يدها فى خصرها وصاحت :
— هو ياروحى من وقف قدام باب بيتيه
كفر ؟ !

— وقوفك فيه اغراء للجمهور
— حسرة وندامة علينا . وحياة دقن القاضي
عمرنا ما وقمت عينتنا على جمهور ، ولا مر من قدام
منزلنا « ادلدى » جمهور
— غرامة عشرين ... غيره

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل
كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته
« المزهرة » ومن جلبابه السكشير وعباءته الجوخ
الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفوته ،
أنه على جانب من اليسار واستواء الحال . فسان
مثل حتى ابتدره القاضي :

— انت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل
كليك فى الميعاد القانونى
فتنجنج الرجل وهز رأسه وتتم كأنه يستغفر
ويسترجع :

بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة ... وقدم لأوا
المقاعد و « الدكك » وقاض فيضهم على الأرض
والمرات ... جلسوا القرفصاء كأنهم الماشية رفعون
عيونهم الخاشعة إلى القاضي وهو ينطق الحكم كأنه
راع فى يده عصا . وضاق ذرع القاضي بذلك اللون
المتكرر من المخالفات فصاح :

— فهمونى الحكاية : الجلسة كلها خرقان
خارج السليخة !. وحق فى الناس بعينين كالحصتين
خاف المنظار الراقص على طرف أنفه ، ولم يفتن
أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من تعريض .
ومضى المحضر بنادى وقد تغير قليلاً نوع المخالفة
ودخلنا فى نوع جديد ، فقد قال القاضي للمخالف
الذى حضر :

— أنت يارجل متهم بأنك غسلت ملابسك
فى التربة

— يا سمادة القاضي ربنا يملى مراتبك ! تحكم
على بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟
— لأنك غسلتها فى التربة
— وأغسلها « فين » ؟

فتردد القاضي وتفكر ولم يستطع جواباً . ذلك
أنه يعرف أن هؤلاء الساكنين لا يملكون فى تلك
القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من
الأنابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون
كالسائمة ، ومع ذلك بطالب إليهم أن يخضعوا إلى
قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ،
والتفت القاضي إلى وقال :

— النيابة ..
— النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يفسد
هذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنىها هو تطبيق

أنا حافت ووقع مني عين أن البنية ما يقل مهرها
عن العشرين بنتو ...

فرقع القاضي رأسه وثبت منظاره ونظار اليها صامحاً:
— تمالي كليتي هنا ، أنا القاضي ، المضة
حصلت منك ؟ قولي نعم أو لا ، كلمة واحدة
— عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن
كله إلا المض

فصاح القاضي في المحضر : « هات الشاهد »
فحضر المحي عليه وقد لف بنصره في رباط صهي ،
فسأله القاضي عن اسمه وصناعته وحافه اليمين أن
لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :
— أنا يا حضرة القاضي لالي في الطور ولا
في الطحين . والقصة وما فيها إلى كنت واسطة خير
وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية .

فحلق في وجه القاضي وهو يكظم غيظه ، ثم انهره
وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل
الأوراق قائلاً : إن لهذه المهمة ابنة تدعى « ست أبوها »
خطبها فلاح يدعى « السيد حريشة » وعرض
مهرها قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير
العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء
ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبي صغير يطلق
عليه اسم « الزنجير » فذهب من تلقاء نفسه إلى
أهل العروس وأبلغهم كذبا أن الخاطب قد قبل
الشرط ؛ ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت
قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر
عبث هذا الصبي ومكره بالطرفين أن حدد يوم
لقراءة الفاتحة في بيت العروس ، وانتدب الخاطب
الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج ليكونا شاهديه .
وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة ، وما كاد

— عشنا وشفنا الكلاب تتسجل « زى

الأطيان » وتبقى لها حيثة !

— غرامة عشرين ... غيره

ومضت الأحكام في جميع المخالفات على هذا
النحو ولم أر واحداً من المخالفين قد بدا عليه أن
يؤمن بحقيقة ما ارتكب . إنما هو غرم وقع عليهم
من السماء كما تقع المصائب ، وأتاوه يؤدونها ، لأن
القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ؛ ولطالما
سألت نفسي عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن
نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً
أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر :
« قضايا الجنج » ونظر في ورقة « الرول » ونادى
« أم السعد بنت إبراهيم الجرف . فظهرت فلاحه
عجوز تدب في القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين
يدى قزمان أفندي المحضر . فوجهها إلى القاضي
فوقفت تنظر إليه بعصر ضعيف ثم لم تلبث أن
تحولت عنه وعادت إلى الوقوف بين يدي المحضر
المهرم . وسألها القاضي ووجهه في الورق :

— اسمك ؟

— بحسبتيك أم السعد

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فتمزها
قزمان أفندي ووجهها إلى المنصة مرة أخرى وسألها
القاضي :

— صنعتك ؟

— صنعتي حرمة

— انت متهمه انك عضضت أصبع الشيخ

حسن عمارة

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر

— وحياء هيبتيك وشيبتك إلى ما عبت أبداً .

وغرقت في مقعدى وقد عبث النوم بأجفائى ،
ومضى وقت است أدري مقداره ، وإذا صوت
القاضى بصيح بى : « النياية ! طلبات النياية . »
ففتحت عينين حراوين لا يبدو فيهما غير طلب
النوم ، فأخبرنى القاضى أنه اطاع الآن على تقرير
الطبيب الشرعى فإذا الاصابة قد تخاف عنها عاهة
مستدعة هى فقد « السلامة » الوسطى للبصر ؛
فاعتدت في مقعدى وطلبت في الحال الحكم بعدم
الاختصاص . فالتفت القاضى الى المعجوز قائلا :

— الواقعة أصبحت جنائية من اختصاص
محكمة الجنايات

فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالمضة
في نظرها هى ما زالت العضة ، ثا الذى حولها من
جنحة الى جنابة ؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن
أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين

ونوديت القضية التالية فإذا هى شجار بالهراوات
وقع بين والد « ست أبوها » وبين أهل الزوج
(السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر
الأمس . وبمث الزوج بعض أهله ومعهم جل لاستلام
العروس من بيت أبيها . فقاباهم الأب محتداً سارخاً

في وجوههم : « جل » ؟ بقى تخرج بنتى على جل !
أبدأ . لا بد من « السكومبيل »

ونجادل الطرفان فيمن يدفع عن هذه البدعة
التي ربماها بهم تطور العصر . وأدى الجدل الى
رفع العصي وإسالة بعض قطرات من الدماء لامناص
منها في مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن
أخرج أحد الساعين في الخير ريالاً من جيبه
واستأجر سيارة من تلك السيارات التي تمر بالطرق
الزراعية . وحكم القاضى في هذه القضية ثم صاح :
— « انتهىنا من الفرح » و « الدخلة »

الطعام بهياً ويقدم الى الضيوف حتى ذكر المهر .
وظهرت الأ كذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم
الجدال بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول في
صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة ، يا شمانة الأعادى !
والنبي ما أسلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت
المرأة في وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها
وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛
وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده في
طعام وقام الى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها .
بينما مد زميله الشيخ فرج يده الى الأوزة وجعل
ينهم منها نهشاً دون أن يدخل في النزاع المحتدم .
ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام
وإذا الشيخ حسن يرى يده لا في طبق الأوز
ولكن في فم المعجوز ؛ فصرخ صرخة داوية .
وانقابت الدار شر منقاب ، واختلط الحابل بالنابل ،
وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانزعه من أمام
الطعام انزعاجاً وخرج به وهو يحرق الأرم : فهذا
الرفيق لم يقل كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذى
تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت
المعجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عايشه في الكلام . وفجأة
أخذت القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع
المتكلم وقال كالمخاطب لنفسه : « يا ترى أنا حلفت
الشاهد اليمين ... » والتفت الى قائلاً : « يا حضرة
وكيل النياية . أنا حلفت الشاهد اليمين ؟؟ » فجعلت
أندكر ... ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح :
« احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فخاف
الرجل ، فصاح به القاضى : « اذكر أقوالك من
أولها »

فعلت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنى وتشاءبت

على خير ! ... غيره !

فنادى المحضر بصوته المثلث « قضايا المحاميس »
وذكر اسمًا من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل
ونهمض من بين لابسى الخيش رجل فك الحارس
قيدته . ونهمض من بين المحامين أفندى ذو بطن
كأنها القرية الملوثة وقال : « حاضر مع التهم »
« فقلت فى نفسى » تلك قضية لها محام ان يتركنا
قبل أن يفرغ فى رؤوسنا ماشاء بحجة حرية الدفاع .
فلأنهمض عيني منذ الآن فرأيتى أحوج ما يكون
الى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول
للمحبوس :

— أنت منهم بأنك مرقت «وابور غاز» ...
— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان .
لكن لا مرقت ولا نهيت ...

فالتفت القاضى الى المحضر قائلا : « هات
الشاهد » فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى
منكببيه « دفتة » ، خاف اليمين وقال انه أشعل
«وابور الغاز» ليهيئ الشاى لبعض «الزبائن» الجالسين
داخل الحانوت . فهو بدال ريفى صغير يبيع السكر
والبن والشاى والتبغ ويجتمع لديه أحيانا بعض
الناس كأنهم فى شبيه مقهى ولقد وضع الوابور
مشتعلا عند عتبة الباب فى الطريق ودخل المحضر
الابريق وما إن عاد حتى رأى التهم قد حمل الوابور
بناره وجرى به . وجمل الشاهد يسهب ويستشهد
بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضى
مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شىء آخر .
وخآة نظر الى وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت
الشاهد اليمين ؟ » فما تمالكته أن صحت فى ضيق :
« سبحان الله ! ! أنا سمعت الشاهد حلف » فقال
لى القاضى : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى

تفارقنى فهمت : « تحب أنى أحاف لك أنه حاف ؟ »
فاطمأن القاضى بمض الاطمئنان وأصغى الى بقية
الشهود فى صمت وانتباه . ولم يطق التهم صبرا
فهمض بفتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضى ! فى الدنيا « حرامى »
يسرق « وابور غاز » بناره ؟ !

فأسكتته القاضى بأشارة من يده قائلا :
— — ألى أما ؟ ! أما عمرى ما اشتغلت
« حرامى » . ونظر الى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن
التهم بصييح قائلا : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم
نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا فى طريق
به وابور .. والقضية ملفقة من ألفها الى يائها ... »
وأراد المحامى ان ينطلق فى هذا الكلام وأن يصول
ويجول . ولكن القاضى قاطعه :

— حاكم يا استاذ . التهم نفسه معترف بأنه
صحيح اقى الوابور قدام باب الدكان ! فضرب الأستاذ
وجه المنصة بقبضته وقال :

— هذا سوء دفاع من موكلى
فأجاب القاضى فى هدوء :

— غرض حضرتك أنى أصدق حسن دفاعك
وأ كذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعا !
فاحتج المحامى ورفع عقبرته وقد بدالى أن كل
همه أن يجادل صوته فى الجاسة ، وأن يتصعب عرقه
فيمسحه بمنديلته وينظر الى « زبونه » كأنما يريه
الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى
سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام
منصتى قد صيرنى شخصا لا ينى ولا يفهم ما يدور
حوله فأخفيت وجهى فى ماف من ملفات القضايا
واستسلمت للنعاس

نرفيق الحكم

(ينبع)



استغفارت في الغصير

لألفريد ريس

بقلم الأستاذ فليكس فنارس

(تابع ما نشر في العدد السابق)

وكانت عوامل ثلاثة تتنازع عواطف الشبيبة حينذاك : ماضٍ متقصٍ لم يزل يرتجف طله على الأطلال حيث ثوت قوات الأثرة وعصور العنف ، ومستقبلٍ منفرج الأفق بعيد المجال لا يلوح منه غير أوائل ذرات النور ، ومدى بين هذين الحدين أشبه بالمحيط الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد : مدى مضطرب كالبحر الآخر تتلاعب به العواصف فيهدد بالغرق كل ما يحمل ولا يلوح عليه إلا بعض البواخر الجريئة بجنازه صاحبة من حين إلى حين في مثل هذه المفاوز كان على أبناء العصر أن يهندوا : وتلك هي المشاعل التي كانت تنصب أمام فتیان ملء إهابهم العلم والقوة ، وهم أبناء الامبراطورية وأحفاد الثورة . أما الماضي فما كانوا ليرتضوا به ، وما يتحكم الانسان في عقيدته ، واسكنهم عشقوا المستقبل عشقاً شبيهاً بشفق بيكايون عاقل صور القدعة شبيح فائنة من عالم الجن ، فكان المستقبل في بصيرتهم كدمية من رخام هاموا بها فباتوا يتوقمون نورد عروقها بدم الحياة . وهكذا لم يكن لهؤلاء الفتیان إلا زمانهم تسوده روح العصر ، ملاك غسق لا ينفصل عن النهار ولا يتصل

بالليل ، وقد نهّدوا هذا الملك مقتعداً كومة من العظام متاقماً برداء أنانيته ، وأعضاؤه ترتجف من افحات السقيع

فشمروا بفصّة الموت عند ما لاح لهم هذا الشبح نصفه مومياء ونصفه جنين ، فاقتربوا منه والروع عللاً قلوبهم كما يقترب السائح من مومياء ابنة أحد أشراف سارقانديان في ستراسبورغ حيث تعرض لحظة بحلي خطبتها . وما يملك من يشاهد هيكل هذه الطفلة من الارتماش وقد تحلت يدها المتقمة بخاتم العرس وانتثر رماد رأسها على أزاهر الليمون البيضاء

وكان ما يابون ضروره على العالم قد زعزع كل ما فيه ، كما صفة تحتاج الغابات فتز بأسفات أدواحها وتغادرها واجة في سمّت رهيب . وكان الملوك قد شمروا بتيجانهم تميد فدوا إليها أيديهم فلم تعثر إلا على شعورهم وقد وقفها الدعم على رؤوسهم

فعمل بهم ما فعله فولتير بالكتب المقدسة
وسميت الدنيا بعد ذلك نجمة هائلة ، هي صوت
صخرة القديسة هيلانة تسقط على العالم القديم .
ولاحث نجمة التفكير في السماء بأشعتها الباردة كوشاح
آلهة الليل فعمرت بها الدنيا كلها السكفن المروع
وكانت أوروبا قد رأت من قبل عددًا كبيرًا ممن
يعتقون الأشراف ويتهددون الكهنة ويتآمرون على
الملوك ، ولكنها ما عرفت ابتسامة الاحتقار قبل
أن سر الامبراطور وتواري عن العيان ، فكان إذا
اخترق الجمع شريف أو كاهن أو عامل يهز الفلاحون
رؤوسهم متدكرين ما شهدوا من معارك ويقولون :
لقد نظرنا في غير هذا الزمن وفي غير هذا المكان
وقد كانت وجوههم على غير ما نراه اليوم

وإذا ما ذكر أحد العروش والهيكل كانوا
يقولون : إنها عوارض من خشب سمراها نحن
ثم افلأمنناها

وحينما كان الخطباء يقولون : لقد رجعت عن
غوايتك أيها الشعب ، فدعوت إليك ملوكك
وكهنتك ، كان الشعب يجيب قائلاً : « نحن لم
ندعهم ، وما دعاهم إلا هؤلاء المتشدقون »

وإذا قيل للشعب : (عد إلى الطاعة والسكون ،
افلح الأرض واخضع) كانت الشعب ينتفض
وتتحرك السيوف في أعمادها وقد علاها الصدا في
زوايا الأكوخ

ولكن الخطباء كانوا يضيفون إلى كل هذا
قولهم : (عد إلى السكون أيها الشعب فقد أضناك
الجهاد بلا جدوى ، ولا تطلب الاعتداء وليس من
يمتدئ عليك)

فكان الشعب يرتضى بهذا القول ؛ أما الشبيبة
فما كانت لترضى به

لأريب في أن الانسان تتنازعه قوتان مجهولتان

وكان بابا رومة قد قطع ثلاثمائة فرسخ ليبارك
الامبراطور ويضع التاج على مفرقه ، فلم يتورع
هذا الامبراطور من اختطاف التاج من يده
وهكذا كان كل شيء قد ارتعش في غابة أوروبا
القديمة المروعة ، وعقب السكون هذه العاصفة
المهوجاء

يقال : إذا ما صادف السائر كاتبًا هائجًا فتابع
السير برابطة جأش وبخطوات مترنة دون تردد ،
لا يلبث السكب أن ينسج بهدير محتقن ثم ينصرف ؛
ولكن إذا بدرت من غير الطريق بادرة تدل على
خوفه فأخل بانتظام خطواته مسرعًا بخطوة واحدة
فان السكب يتأثره مستأسدًا ، وإذا ما نشب فيه
أنيابه فانه لا يقف حتى يفترسه

لقد رأت أوروبا أكثر من ملك ظهرت منه
بادرة الخوف في تاريخها أمام شعبه فذهب قريسة
لهذا الشعب ، ولكن مثل هذه الكارثة لم تكن
تقع على الملوك جملة في آن واحد ، لذلك سقط الملوك
على التوالي ولم تسقط الجلالة الملكية . ولكن أمام
نابوليون ارتعشت الجلالة الملكية نفسها ، فبدرت
منها البادرة التي تؤدي إلى الهلاك . وما ارتعشت
جلالة الملك وحدها حينذاك بل ارتعش معها الدين
والشرف وكل سلطة إلهية وبشرية

ولما مات نابليون استعادت السلطات الإلهية
والبشرية روعها ، ولكنها لم تجد في الشعب من
يمتقد بها بعد

إن في معرفة ما يمكن أن يقع لخطر آ ، لأن الفكر
يتجاوز الأمكان بافتراضاته ؛ وليس القول بإمكان وقوع
أمر كماقول إنه وقع فعلا ، وما التأكيد إلا أول
عضة للسكب المستأسد

لم يكن نابليون العاني إلا آخر شرارة من نار
الاستبداد ، فقد أعدم الملوك لينسج على منوالهم

بالأفكار الاسكائيزية فاكتسح الحزن كل ما كان من دلائل المرح القديم

ولعل المنية كانت تمهد بذلك طرقها الجديدة فظهر الملاك المبتر بالمجتمع المنتظر ملقياً في قلوب النساء بذور الحرية التي سنطاب المرأة بها في آتى الزمان

وانشق الرجال عن النساء في المجتمعات الباريسية : فلبست النساء البياض كالعرائس ، واتشح الرجال بالسواد كالآبام ؛ وتبادل الفتيان لفقات المدام . وما هذا الثوب الأسود الذي يلبسه رجال عصرنا إلا دلائل انقلاب مريع ، لأنهم ما لبسوه قبل أن تساقطت شارات الشرف فتمزقت الأزياء القديمة وتناثرت أزهار الأثواب المزركشة على الحضيض ؛ فكان الإنسان بعد أن تحكم بعقله وهدم ما كان يقتربه من الآمال ، وقف متشجأ بالسواد ليتلقى كلمات التعزية على المفقود . وسادت عادات طلاب العلم وأرباب الفن تطورات نشأت من التطور العام ، بعد أن كانت تلك العادات محلي الحرية الحقيقية ، ومسررات الشباب النقية . انفصل الرجال عن النساء فاصلت بينهما الاحتقار فصلاً لا شفاء لجراحه . فقد الرجل حب المرأة فاندفع إلى الكؤوس ليستعيب ما فقد ، ونظر الناس إلى الحب نظرهم إلى الدين والمجد فرأوا كل ذلك أوهاماً تلاشت مع الزمان القديم

وغصت اللواخير بالرجال ، فأصبحت الفتاة مهمة بعد أن كانت تغذى الشبيبة بحبها الطاهر السامى ، وعند ما احتاجت إلى غذاء ورداء باعت نفسها . فبالشفاء وبالعار . . . لقد أهل الشاب الفتاة ، وكان في وسعه أن يستنير وإياها بأشعة شمس الله وأن يقاسمها لقمته مألومة بمرق جيئته ، ولكنه تركها وسار إلى مزابيل الانسانية ليجد هنالك تلك

تصليان داخله حرباً عواناً إلى آخر حياته ، فاحداها تبحث وتسبر المستقبل بسكون متحسبة تستنبط أحكامها من العبر ، والأخرى تنحفر للونوب إلى المستقبل منجذبة إلى ما لا تعلم ؛ وعندما تسود الانسان عاطفته بتبعها العقل منذراً باكياً ؛ وإذا بقف الانسان مجيئاً لدعوة العقل ، تهتف الأهواء قائلة : (وأنا هل يجب أن أموت) ؟

وابتداء الأسى يحتمر في القلوب الفتية ، إذ حكم ملوك الأرض على الشباب بالراحة والسكون وفقدوهم بأشد الأمراض أوجاعاً : بالبطالة والضجر ، فأحسوا باضمحلال الأمواج التي كانوا أعدوا لمصارعتها سواعدهم القوية . وسادت المسكنة على هؤلاء المصارعين الذين كانوا مرخوا أعضاءهم عبيثاً بالزبوت . فاندفع الأغنياء منهم إلى ميادين الفحشاء ، والمتوسطوا الحال وخضعوا للقضاء وتحولوا إلى الكهنوت والجندي ، أما الفقراء فلم يجدوا سوى الحماس البارد فارتعوا فيه بالأقوال الجوفاء كما يرتعى المخاذف بنفسه في الدجر الذي لا ساحل له : ببحر الابتلاء بالجدل بعيداً عن العمل

وبما أن الضعف البشري يقود الناس إلى الاجتماع والتعاون ، لم يلبث هؤلاء الشباب أن اجتمعوا فوجدت السياسة مرعاهها الخصب بينهم . وهكذا كانت الشبيبة تخرج من مصارعة حراس المجلس التشريعي لتتجه إلى المسارح حيث تشاهد (تاللا) لانساً قبيحة تشبه قبيحة الأمبراطور ، أو تسير إلى المدافن لتحتفل بمائتم نائب من الأحرار ، لتعود أخيراً إلى مساكنها كل مساء شاعرة بفرغ حياتها وعيث محاولاتها

وما كانت حياة المجتمع الداخلية بأقل بؤساً من الحياة الخارجية ، فساد الناس الأسى والجود ، وتسلط الرياء على العادات ، وأصبح الدين مشوباً

الواسمة ؟ ألم تلهمك الروح وأنت المتصوف المتقد
بوحدة الوجود ما يمينك على سكب قليل من المسك
في تلك الكؤوس الرائعة التي نحسها للأجيال ،
وقد كانت ابتسامة واحدة منك كافية لاستموا
النحل فتزل بجنيها على شفقتك

وأنت يا برون : ألم تسكن عائشا تحت سماء
إيطاليا الجميلة ؟ ألم تكن تنأجى أمواج الادرياتيک
والى جنبك المرأة التي أحببت ؟

أما الذى أوجه اليك هذه الكلمات الآن ،
وما أنا إلا فتى ضئيف تحمل من الحياة ما لم تتحمله
أنت من مصائبها وآلامها ، إننى أؤمن بالأمل
وأبارك الله

وما هبت زعازع الأفكار الانكسارية والألمانية
على رؤوسنا حتى سادنا الاشتزاز برهنة نعم عقبه
الاختلاج الرابع . لا شئ . يحول أملاح الدواطف
الى بارود منفجر كالثلاعب فى مواطن الشك
بالمبادئ العامة . وكان جوتيه برأسه الجبار قد
اعتصر كل ما فى الثمرة المحرمة من خلاصة ، فخل
للناس أن من لم يقرأ جوتيه لا يعرف من الحياة
أشياء . ويل لهؤلاء الناس ! لقد انفجرت أفكارهم
علامة أفسار جوتيه ، فتناثرت ذرات تنهية فى
مهاوى الشكوك

وساد الجحود تلك الأزمنة ، فأنكر الناس كل
ما على الأرض وكل ما فى السماء . وما الجحود
إلا آمال عاثرات تدور بها الأحزان ، فكان
الانسانية كانت قد تراخت عزائمها فدخات طور
الاختصار ، فأنحنى عليها المفكرون يجسسون مواضع
انباضها ليتحققوا موتها

وكانت شبيبة فرنسا شبيهة بذلك الجندي الذى
أجاب من سألته : هم تؤمن ؟ فقال إننى أؤمن بذاتى .
فنجيب من يورد هذا السؤال عليها : إننى لا أؤمن بشئ .

الفتاة نفسها مثقلة بالهموم شاحبة مضمضمة يجول
على فمها الجوع ويرعى قلبها الابتذال

فى ذلك الزمان ظهر شاعران هما أعظم عباقرة
المضر بعد نابليون شخصيا حياتهما لجمع ما تبدد فى
الأرض من مبادئ الشقاء والآلام ، فكتب
جوتيه عميد الأدب الجديد (آلام فرتر) واصفاً الوله
الذى يقود الى الانتحار ؛ ثم عاود رسم فى (فوست)
أعظم صورة تمثل الشر والشقاء . واجتاحت
كتاباته فرنسا كلها وهو جالس فى بيته فحوطه
السعادة وتخدمه النروة ، فكان يرسل البنا رشاش
قلبه الأسود وعلى شفتيه ابتسامة الأب لبنيه . . .

وجاء برون من جهته برفع صوت الحروب
والفجائع ، كأنه لم يجد من حل أسر الوجود غير
كلمة المدم المروع

عفوا أيها الشاعران العظيمان ! أنما الآن ذرات
رماد بفترش القبور ، أنما فى عداد أنصاف الآلهة
أيها الشاعران : وما أنا إلا فتى بضئيف المذاب ،
واسكننى وأنا أسطر هذه الكلمات لأمتلك
نفسى من إرسال المنة عليكما

لماذا لم تغنيا بمطر الأزهار ، وأنشيد الطبيعة ،
وبالأمل والحب ، والكروم ، وشعاع الشمس ،
وبأنوار الشفق وروعة الجبل ؛ لقد عمرتما كتبه
الحياة ، ورأيما الدنيا تتداعى فبكيهما على الأطلال ،
وأرسلتما أزين البائسين . لقد ذقنا خيانة الخليلات ،
وجفاء الأصدقاء ، واحتقار أبناء الوطن ، فدارت
بكما أشباح الموت وشمرت بما بقاء القلب . لقد كان
كل منكما جباراً من جبابرة الأحزان . واسكن قل
أنت يا جوتيه ! أما سمعت أذنك صوتاً واحداً يؤاسى
الحزين فى هدير الأجراس المقدسة فى بلادك ؟ أفأ
تمكنت وأنت من يعرف أن الشعر صنو الفلسفة
من العثور على زهرة السلوان فى هذه الطبيعة

في آفاق آسيا . وكانت شاتوريان قد قبض على صولجان إمارة الشعر ، فلف اليأس برداء أسفاره ورفع كائنهم على هيكل اتهم إلى حوله عبقات البخور فأنحت شبيبة فرنسا على قواعدا المكبوتة بأسة تكرع كأس الآلام حتى الثمالة ، وملأت الأقطار نفثات الأفلام المضللة بأدب لالون له ، فكانه رشاش من دم آسن يرسل انغذية مسوخ الحياة

ومن له أن يصف ما كانت عليه المدارس في ذلك الزمان ؟ لقد كان الشك يدور الرجال ؛ أما الشبيبة فقد كانت اجتازت مرحلة الشك واستقرت على الجحود . وكان الشعراء يتفننون بالخيبة وعثرات الآمال . وكان الشبان يتركون مقاعد المدارس ويواجهون الحياة بحياة تطفح بالبشر وعلى أسانهم امة الكفر . وكان الطبع الفرنسي المائل إلى المرح ينيل الأدمغة مناعة تحتل الأفكار الانكليزية والألمانية ؛ غير أن القلوب لم تكن منيعة لتحتمل النضال في الأوجاع فذبات وأنحت على ذاتها كأنها أزهار مقصوفة

وهكذا اتجه مبدأ الموت إلى الاحشاء منسربا اليها بهدوء من الأدمغة ، فأنسكروا الخير بعد أن كنوا يؤمن بالشر ، وبلغ اليأس مرحلته الأخيرة فاستقر على الشعور البت . وجلس أبناء الخامسة عشرة تحب ظلال الأشجار الزهراء يتجاذبون من الأحاديث ما يهز أشجار فرسايل الهرمة

طوى ابن لم تدر كم هذه الأزمنة فنزلوا إلى المساوية وهم يتطامعون إلى السماء . إن من حالات الحياة ما يصدع القلوب بالشقاء فلا تجد هذه القلوب ما يفرج كربها إلا إرسال اللعنات والتجديف

وقف ملحد أمام السماء وقبض على ساعته متجددا صاعقة الموت ، وقد منح ربه مهلة ربع ساعة ، وبات ينتظر . إنها لفترة ماؤها أشد غضب وأفزع

وانشطر المجتمع إلى فئتين : فئة النفوس المضطربة التوجمة النافقة إلى المثل العليا ، فكان أبناؤها يحنون الرأس ويكون متلفعين بأحلامهم المؤلمة كأنهم مقسبة تهايل على مستقع من الشقاء . أما الفئة الثانية فكانت مؤلفة من رجال السادة والشهوات يقفون بلا مبالاة على ركام الملاذ ولا هم لهم غير إحصاء الأموال التي حشدتها أطعمهم . وما كان يتساعد من هذا المجتمع المؤلف من الفريدين سوى زفرة وضحكة : تلك ترساها الروح ، وهذه يقذفها الجسد . وكانت الروح تقول في زفرتها : — إن الدين يتداعى ، وهذه سحب السماء أصبحت غيوما تتساقط أمطارا . لقد فقدنا الأمل وحررنا حتى قطعة من الحشب الأسود نرفعها صليبا لنمد أيدي الضراعة نحوها . لقد تلفت نجمة الصبح بالغيوم الكثيفة على مطلع الفجر ، فكان الشفق يقبض عابها ليصدها عن الارتفاع ، وكأنها شمس الشفاء ألقت الثورة عليها براقع الدماء

لقد فنى الحب واضمحلت الأنجاد ، فما أحلك الظلام في هذا الليل الترابي بأطرافه على الأرض ! واسوف ندرك الموت قبل أن يتدار كئنا نور الصباح أما الأجساد فكانت تقول في ضحكتها : — لقد وجد الانسان للتمتع بحواسه ولديه من القطع الصفراء والبيضاء ما يقيس به حق نعمته بالتكريم . وما الحياة إلا الطعام والشراب والرقاد ؛ أما العلاقات الاجتماعية ، فمنها المودة القائمة على استقرار المال ؛ وقد تجد صديقا تدفع المواطن به إلى هذه التضحية . ومنها صلات القرى وهي نافعة للحصول على الميراث . ومنها الحب ، وما الحب إلا رياضة بدنية . وإيست اللذة العقلية إلا نوعا من الفرور والكبرياء . وهكذا كان اليأس يتمشى بخطواته الواسعة ذارعا أرض أوروبا كأنه الطاعون ينتشر من نهر الكافج

أيام جهادهم ومحنهم كانت قد استحوالت الى ضربات قاضيات عندما صارت القوة الى أيديهم

قال مونتسكيو : « لا يسمنى وأنا أفنكر بحالة الشعب وهو رازح تحت استبداد الكهنوت اليونانى إلا أن يخطر ببلى أوانك العبدان الذين أنى هرودوت على ذكرهم ، وهم من كانوا يخضون اللبن لاستخراج زبدته ، وكان أسياهم يقتامون أعينهم كيلا ينالوا بالمشاهد عن متابعة العمل دون انقطاع . وهكذا كان الكهنة فى روما يعمون النور عن كل مبصر ، فلم يكن يقرر القيام بحرب أو عقد هدنة أو قرص أو الاتيان بأى عمل دون أن ينظر الرهينة فيه أولاً ، إن القلم ليس كل دون وصف الأضرار التى نتجت عن هذه الأعمال »

على أن مونتسكيو كان يوسعه أن يتم كلامه قائلاً : (إذا كانت المسيحية قد هدمت العروش ، فأنها أحييت الشعوب . إذا كانت قد فتحت للبر أبواب القسطنطينية ، فأنها قد فتحت أيضاً أبواب الأكواح باسم المسيح . وما كان بالأمر الضرورى أن تحتفظ روما بمجدها المتداعى وهى المومياء المحنطة بمطر نيرون والمكفنة بوشاح نيباربوس وقد رعى أحشائها دود الفساد

إنما عمل المسيحية ، أيها السياسيون ، كان يتجه « إلى إدخال السلام على قلوب الفقراء البائسين ، وإلى إخراج الأمل من أحشاء المومياء الفاسدة قوة حية تمضد كل مظلوم ، وذلك ما قامت به المسيحية على أنقاض روما ، ولكن ماذا فعل خلفاء هادى روما بعد مرور السنين ؟ إنهم لبثوا ينظرون إلى الفقير برهقه الغنى ، وإلى القوى يستبدوا بالضعيف ، ويسمونه يقول : (إن الأقوياء سيستحققوننى على الأرض ، غير أننى سأقف فى جوههم عند ماسيحاولون دخول السماء فاشكؤهم إلى الله)

لذة ، إنها لفحة بدايتها تنامى اليأس تحنك بقوات السماء . وهل كان ذلك الرجل إلا مخلوقاً شقيماً يتحمل تحت الأرجل التى تركله ؟ وهل كان صوته إلا نداءً هائلاً تدفع به المحن والآلام ؟ من يدري ؟ لعل هذا التحدى الموجه إلى السماء كان فى عين من ينفذ الى خفايا القلوب نوعاً من الصلاة ...

وما كانت الشيبية إلا كهذا الجاحد تفتح لقواها المكبوتة منافذ الفرج باليأس . إن من لا يجد أمامه ما يشغل به قواه ليتخذ تسلياً له من التجديف فيتهم على الدين والمجد والحب وعلى كل ما فى العالم ، تلك الوسيلة هى السبيل الذى يتبعه الانسان ليخادع نفسه فيتهم عليها وهو يجدف على كل شئ .

بلذ المرء أن يضع نفسه فى مصاف الأشقياء حين يحكمه الضجر فيندفع الى الفجشاء لأنها أول ما يخطر على بال العاطلين ، وهى الآلة التى تتلمسها الأعصاب الهائجة لتشد بها على نفسها تسكيناً لاختلاجها

وكان الأغنياء يقولون : لا حقيقة إلا بالثروة وأما ما سواها فأحلام . فلنتمتع بالثروة ولنت

وكان متوسطو الحال يقولون : لا حقيقة إلا بالسوان ، وأما ما بقى فأحلام . فلنسل ولنمت . أما الفقراء فكانوا يقولون : لا حقيقة إلا فى المذاب ، وأما ما سواه فأحلام ، فلنجدف ولنمت إنه لو صف مريع قد يحسبه البعض مبالغة ، وما أنا إذ أورده مندفع بالمداء للانسانية ، فهو وصف للواقع ، وهذا هو البرهان

كل من طالع التاريخ وسبر غور الأسباب التى أدت الى سقوط امبراطورية روما ، لا بد له أن يرى ما انبعث عن المسيحيين من قوات دمرتها تدميراً ، فان العظمة التى تجلت فى هؤلاء المؤمنين

نرسل البركة إليكم

لقد كانت الغنى يقول للفقير فيما مضى :
الأرض ، فيجيبه الفقير : أما أنا فلي السماء . فبأية
كلمة سيجيب الفقير الغنى الآن ؟

إن علل هذا العصر كلها قد نشأت عن سببين ،
فإن الشعب الذي مر على نورتي سنة ١٧٩٣ و ١٨١٤
قد خرج منهما بمرحتين . كل ما كان قد زال ،
وكل ما سيكون ليس كائناً بحد . هذان هما السببان ،
من الميث أن افتش عن ثالث لهما

ما حالنا إلا حال رجل تداعى مكنه الى
الحضيض وقد يمتز أنقاضه يقوم ببناء جديد .
تتم الرجل عن ساعد الجد وبدأ العمل وهو منتظر
ورود الحجارة البيضاء الجديدة لرفع البناء ، ولكن
قيل له ان الحجارة البيضاء الجديدة بعيدة المنال ، فعليه
أن يصاح الحجارة السوداء القديمة . وسطا الدهول
على هذا العامل الذي لا يريد أن يرفع بيته بواد أخواتها
الدهر وموهبتها الأيام بالأسود ، ولكن ما العمل
والمحجر عميق ولا أدوات لديه لاستخراج
الحجارة منه

وقف التفرجون حوله وقالوا له : استخراج
الحجارة من حين الى حين واشتغل على مهل
وتكاثر النصاب تبذل لهذا الرجل وهو
واقف تحت سماء الله . لقد تهدم بيته القديم ولا
بيت جديد له ، فهو عرضة للحر والقر ، لا يعلم
أين يعمل وأين يرتاح وأين يأكل وأين ينام وأين
يحيا وأين يموت ، وهو متعب مضطرب ، وأطفاله
يكون في أمرتهم في العراء

ومن أشبه بهذا الرجل منا ؟
أى بنى القرون المقبلة ! إنكم ستنتحون في
زمانكم على المحارث تمزق أحشاء الأرض فتبتسم

هكذا صبر هؤلاء المؤمنون فيما مضى ، ولكن
أعداء المسيح وقفوا وساحوا بالفقير قائلاين :
إنك صابر تتوقع ظهور العدل ، والعدل لا وجود
له . إنك تنتظر البعث لتخلص من الظلم في الخلود
وليس من خلود . أنت تدخر دموع أطفالك ونواح
امراتك لتجملها إلى أقدام عرش الله بعد موتك ،
وما بعد الموت من حياة ، فإن الله غير موجود)
وعند ما سمع الفقير هذا جفف أجفانه وقال
لاسرأته أن تكف عن النواح ، ونادى بأولاده
ليقف معهم على الحرق الباليه كالثور الهائج . وصرخ
في وجه الغنى قائلا :

(ما أنت إلا رجل أبها الظالم .)

ثم التفت إلى الكاهن ، وقال له : « لقد كذبت
أبها المعزى »
وهذا ما كان يقصده أعداء المسيح ، ولما هم
حسبوا أنهم يسمدون الفقير برسالة على سبيل
المطالبة بالحرية

ولكن إذا فهم هذا البائس أن الأغنياء
يحبونه حقاً وأن الكهنة يتاجرون بجهله ، إذا
ما عرف أن للناس حقاً واحداً في الحياة وأن الفقر
هو الكفر بعينه ، فإن إيمانه لينحصر حينئذ بقوة
ساعده فيهدف قائلاً : لأصاين الأغنياء حرباً عواناً .
إن اللذات للجميع على السواء ، إن الأرض لي أنا
أيضاً ما دامت السماء خاوية خالية

أبها المفكرون الذين تقودون الفقير الى هذا
الموقف ، أية كلمة تدخرونها لشقائه إذا هو افتحم
المعترك فسقط مغلوباً على أمره ؟

لقد يكون حبكم للانسانية المعذبة قد أهاب بكم
الى المتابعة بهذه البداى ، ولقد يحى بكم يوم
يبارككم الناس فيه ، أما اليوم فلا يسمنا أن



الأول ذئبية

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

لسهاماً مسمومة مسمومة سقاها أبى بمد إذ رفض
أنت أيسمها إيلوس بن مرميس^(١)... وهو
لوصوبها إلى أولئك المغاليك لأبادهم... يارحناله !
إن أحداً غير — الآلهة — لا يعلم إن كان ما يزال
حيّاً يرزق أو هو قد ابتلعه اليم أو عاجلته المنون...
تليهاك ! يا ابن أغر الناس على ! إصع لى وع الذى
أقول : إنك لست طفلاً بمعد ! فلم لا تشعر عن
(١) أورد هنا هوميروس أسطورة لاداعي لذكرها

وانثال الحسنان فى فم ميترقا ، إذ هى نجيب
الفتى المحزون :
« ويح لك أيها الفتى ! رحمتك يا بنى الصغير !
أواه ! لو أن أباك هنا اليوم ليزود أولئك المناكبذ :
وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلعب رجببه
أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له

الشكر لله، أيها الأحرار، لأنه أوجدكم فى عصر الحصاد.
افتكروا فينا نحن الراحلين وتذكروا أن ماتتمتعون
به من عناء وسلام قد كافنا كثيراً من الشقاء
رحموا علينا أكثر مما ترحمون على سائر
من تقدموكم فى مراحل الأجيال ، لأننا نعملنا أوجاع
أجدادكم دون أن نتمتع بما كان لهم من عزاء...
فليكنس فارس

لكم بمروجها ونباتها أمّا بارة بالماملين تغنى لهم
وهى تجر برود الأنوار فى الصباح ، فى تلك الأزمنة
سيكال المرق جبينكم بالفرح والحبور ، وإذا
تسرحون أنظاركم على الأفاق الواسعة ، فانكم إن
تجدوا فى حقول الانسانية إلا السنابل تتماوج
متساوية قد رصعتها الأزهار
فى ذلك الحين ، عند ما ترفمون رؤوسكم لتؤدوا

وعلى الآلهة فلتشكل ! »

وحين انتهت ميترًا من هذا الحديث ، حدجها تليماك وقال : « أيها الصديق حيا ، وبأبر الأوفياء سمما ! لقد أيقظت في ضميرك أنت أحييته . فألف شكران لك ... أبدأ لن أنسى كلمتك : أنا ابن أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس » وحاول الفتى أن يقدم لمحمد هدية سنية تكون تذكار هذا اللقاء ، ولكن ميترًا شكرته وأبت أن تأخذ شيئاً « فإذا نجحت في مسعاك يا بني فدوف أعود وسوف أقبل أية هدية منك ! »

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزرجيتين . ولشد ماذهل الفتى ووقف مسبوها مشدوها حين رأى هذا الأمير (منس) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسرًا قشعماً بضرب الهواء بجناحيه ثم يملو ويملو ... فيكون في السماء ويفيب عن ناظره ! !

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات الملحة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ، وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذي أرسل جناحيه وغاب في السماء

وانطلق تليماك حيث جلس الفساق يستمعون إلى أغاني فيميوس ، وحيث وجد أمه في الشرفة العليا تستمع هي الأخرى إلى تلك الأغاني بين قياتها من وراء ستار صفيق وتبكي ... وتسال فيميوس أنت بتفتي غير هذا الغناء غناء لا يشير ذكريات شجوها وشجنها ... وتثور النخوة في قلب الفتى فيصيح بأمه : « علام العويل يا أماء ؟

ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك : لم ترضى أن يطلع شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك في أمر أمك ؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا ؟ أليس أبوها أليق لهذا الشأن من كل رجل سواء مادام أوديسيوس لم يؤب ؟ لم يربضون هنا كسباع الغلالة يوهون ثروتك وبأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك ؟ إستمع لما أقول يا تليماك ! نبي القوم فليجتمعوا لك ، واتسمعهم كلمتك ، واتصارح أمك إن هي أرادت منهم بعلًا فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد . ثم أنهض أنت يا ابن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعد ما استظمت من سفين وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بركة الآلهة ، فلتذهب أولاً إلى (يلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور ، ثم إلى إسبارطة حيث صاحب هذه الداهية منالايوس^(١) ... أقنع بفلكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر ... ولتكن لك أسوة في الفتى الجريء المقدم أورست الذي قتل قاتلي أبيه^(٢) ، وفيهم أمه ... بوركت يا أورست ! بوركت يا أورست ! هلم يا تليماك فقد تعود بأبيك حياً فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت ؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره ، وتقيم قبره ، وتخلد في العالمين أثره ! ! والآن ، فلأنهض أنا إلى رجال وسفنى . لقد بعدت طويلاً عنهم ... وكلى بقين يا بني أن تقدر نصيحتي

(١) زوج هيلين أخت بنابو والتي كانت سبب حرب طروادة

(٢) أجاممنون

حين تخلعه على السماء ... غير أن أمره إليكم اليوم
إن كان قد قضى أوديسيوس ... أما أنا ... فلا أريد
إلا أن أكون سيد هذا القصر ... ولا أغرو ...
فإن هذا من حق ! »

وأجاب يوريماخوس : « إن من حقك أن تقول
ما تشاء يا أخانا تليماكس ... أما ملك إيثاكا فالسما
وحدها تؤتية من تشاء . ولكن قل لنا برك من
هذا الضيف الذي كان معك الساعة : هل من قبل
أيك أقبل ؟ أم إن له عليكم لَدَيْنَا ؟ إن أحدا منا
لم يلقه ولم يره ، ولكننا لحناء من بعد ، عليه سماء
النجاة والجلال . من أين أقبل يا تليماكس وفيه
قدم ؟ ... »

وأصلح تليماك من شأنه وقال : « أيها السيد
يوريماخوس : إن بقيتي أن أبي قد انتهى ... وإن
تغربي هذه السمات المعسولة التي يتشقق بها
المنجمون ... أما هذا الضيف ... فهو من
أصدقاء أبي طبعاً ، وقد أقبل لجرد الضيافة ، وهو
الأمير مندس أمير البحارين وسيد تافوس ، وابن
سيد هذا الزمان ، الملك الشجاع أنخيالوس . »

فلما تليماكس وهو أعرف الناس بضيفه ،
ثم اتنى كل إلى غيمه ، وانشى تليماك إلى مخدعه
بالطابق العلوى . حيث كانت مرضعه يوربكليا
تنتظره ، وتوقد له الشموع والشرج . يالها من
أنثى طيبة تخلص لولاها وتحتو عليه ... وأسرعان
ما هيأت له فراشه الوثير ...

وقضى تليماك ليلةً نابغةً ممتلئةً بالهواجس

والأفكار

وما وقوفك هذا الموقف تسترقين الغناء ؟ وما اعتراضك
على الغنى ؟ دعيه يتغنى ما يشاء ، فلقد غدونا سخرية
القضاء وهزؤ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس
وفهبت معه كرامة هذا البيت ، وإنى لصاحبها
بمده ... فادخلي ولبدخلي معك قيانك ولتقمن جميعاً
بشؤون المنزل ، ولتستخلين إلى مغزلك ومنسجك ،
ودعي كل ما عدا ذلك للرجال ... لي ... لي أنا
وحدى : سيد هذا القصر ! »

وأثرت مقالة الابن في نفس أمه ، فاشتت مع
قيانها إلى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى إذا خلت
إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء
لها حزنها أن تذرف . أما تليماك فقد انطلق وسط
القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها القساق ! يا عشاق
أبى ! خذوا في لمركم ، وتتمعوا قليلاً أو كثيراً ،
فاذا كان الغد فاجتمعوا في الساحة الكبرى ، فإن
لى كلاماً منكم ... سأطلب إليكم أن تشدوا رحالكم
من هنا : أنتمون ! لقد طالبا ألتفتم لنا زادا
وعتاداً ... ألا فلتلتمسوا الزاد والعتاد من عند
أنفسكم ؛ ولتقيموا أفراحكم وولائكم في غير هذا
المكان ؛ فإن أبيتم فاني مستمين بالآلهة عليكم ،
ولتقتص منكم السماء بما جرحتم ... »

وما كاد يفرغ من قائلته حتى عضوا على أصابعهم
لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذي لم يمتدوه .
ونهمض أتينوس من مجامسه وقال : « تليماكس !
لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن ...
يا لشؤم اليوم الذي تتوجك السماء ملكاً فيه على
إيثاكا ... عرش آبائك وأجدادك ! »

ويجب تليماك : « ليس أحب إلى من الملك

تليماك يجادل العشاق

وبحجر بامنا عنه أبيه

ضميمة ما تقدم



ميترا

من شأنه ، وتقلد سيفه ^(١) ، ثم انقفل مختللاً ،
كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل
يقلب عينيه في هذه الخيام المضروبة التي تملأ حديقة
القصر ، والتي يتوى فيها أولئك الفجار الاشرار
عشاق ينلوب ؛ وثابت قبلا وفي القاب لعل ، وفي
الفس كلوم ؛ ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين ، وأخذوا
ينسجلون الى الردهة الكبرى ، حتى إذا انتظام
عقدهم والنم شملهم تقدم هو متهدجا نحو عرش
أبيه ، وفي يمينه رمح ظالم الى تلك الدماء النجسة
التي تتدفق في عروق الذئاب ، وعن جانبيه كلباه
الضاريان يتهديان وفي عيني كل منهما جرتان . وكانت
ميترا نفسها تصفي على الشاب سماء النبل ، وترقرق
فوق ناصيته أمواها من العظمة والمجد ، لتهدف منه

« بعد سقوط طرودة عاد كل أبطال الأعراق
الى أوطانهم ما عدا البطل العظيم أوديسيوس الذي
ضل طريقه في البحر وثلاث سنين ضوالة يخط في الم
على غير عدى وكانت زوجته ينلوب تحت هيابن من
أجل العادات اليونانيات قطع أمراء البلاد المتساخة
في التزوج منها ، ونسكنها رقصتهم جميعاً ثم لحأت الى
الحيلة معهم حينما لحأواهم الى العطرسة وأفلوا أنفسهم
وقضيتهم ، فمكروا في حداث قصر أوديسيوس
وردهاته ليضطروها أن تختار منهم زوجاً لها . ذلك
أنها اضطرت لنفسها متجاً وراحت تعمل عليه
ووعدهم أنها حين تفرغ من نسجها فتنها ستختار
منهم ملاً لها . ولكن هذه الحال لم ترض ميترا
الحكمة ونصيرة أوديسيوس . فسألت أبداً كبير الآلهة
أن يساعد هذا البطل وأن يتأذن فيأمر بعودته الى
وطنه . وكان أوديسيوس في هذه الآونة عند عروس
الماء كالبيسو التي أنخرمت به وانفتحت بقوة فأبقت لهما
وراحت تراوده عن نفسه ؛ فأرسل كبير الآلهة ولده
هرمز الى هذه العروس بأمرها بأعداد سفينة يبحر
البطل عليها الى بلاده — أما ميترا فتنها ذهبت بنفسها
الى تليماك ابن أوديسيوس — في صورة أمير من أمراء
البحر يدعى منس ، وهناك أكلت مع الفتي ثم حرضته على
طرد العشاق الجرمين من قصر أبيه ، وبعد أن قرغت
من حديثها معه حوالت نفسها الى تسر عظم وصعرت
الهواء بتناجها وعابت في السماء ، فأكاد الفتي أن
الذي كان يكلمه ليس أمير البحر منس ، ولكنه إله
عظم أقل ليد له يد المساعدة في البحث عن أبيه —
وقد خطب تليماك العشاق فطلب إليهم أن يجتمعوا في
القدي الردهة الكبرى ليطلب منهم أن يغادروا القصر
وأن يذهبوا الى جده فيخطبوا إليه ابنة ينلوب إن
أرادوا ، ثم ذهب يستريح في مخدعه الى الصباح »

موهت أوروا ^(١) ، ابنة الفجر الوردية مشرق

الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقدته ، وأصاح

(١) ربة الفجر في الميثولوجية اليونانية وإحدى تالعات
أبوللو وهادية عربته — الشمس — عند ما تنزع من
مربوب المشرق

(١) في الأصل (صفيحتة) وهي السيف العريض

العرب في قلوب أعدائه ، حتى ابهرهم أن يروا في
تليماك ذلك الضرغامه المختال

وما كاد الفتى يستوى على عرش آباه الصيد ،
وأجداده الصناديد ، حتى نهض شيخ يحمل فوق
كاهله السنين الثقيل ، وتشتمل في رأسه شبة
التجارب وجلال الفعّال . وكان هو إيجيتوس
بصينه . . . إيجيتوس المسكين الذي بعث بولده
أنثيفوس في أسطول عظيم وجند لجب ، ليشارك
في حرب اليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ،
وكر وفر ، وجال وصال ، وصمد وانتصر . . .
ولكنه . . . والأسفاه . . . لم يعد إلى أوطانه في
العائدين ، بل سحب أوديسيوس في رحلته المشثومة
وراء البحار حيث أكله السيكاوڤ الوحش فيمن
أكل ^(١) . وقف إيجيتوس بين أبناء له ثلاثة ،
أحدهم من عشاق بيلوب ، ثم قال :

« أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها
أول مرة منذ بارح أوديسيوس بفلات أكبانا
ندعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع . فنذ الذي دعا
إليه ، وماذا بدتني ؟ أنفجة من نفحات الشباب ،
أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا
الهالك يبشر بموئيد أحمد ؟ لينهض باركته السماء
فيحدثنا عما دعانا إليه »

وتناول تليماك صولجانه من قواصه ، وتقدم حتى
كان في وسط القوم ، وجهر فقال :

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة !
أنا . . . تليماخوس بن أوديسيوس ، صاحب هذه
الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل . . . لقد دعوتكم
لأشكوا إليكم بشي وحزنى . . . لا لأزف إليكم

(١) سيأتي ذكر ذلك في الكتاب التاسع

بشرىات الجيش المفقود الذي لا يعلم مصائره !
لأريوس : لقد فقدت والدى ، ووالد الأيثاكيين
جميعا ، ثم أما اليوم حبس هذه الدار ، أسير هؤلاء
المشاق ^(١) الذين يطعمون في الزواج من أمي ، غير
متقين في عرضي إلا ، ولا راعين لأبي ذمة ،
يذبحون النسم ^(٢) ، ويربغون ^(٣) الزاد ، ويعاقرون
ابنة العنب ، ولا يبالون أن يهلك الزرع والضرع ،
ما داموا يبيتون ويطونهم ملاي ، ويبيت غيرهم على
الطوى . . . ! لقد استباحوا هنا كل شيء ، مادام
لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لي فأغل
أيديهم ، ولا ضمائر فيصيخوا إلى قولي ، ويرحموا
ضعف ، ويذهبوا من فورهم إلى جدى فيخطبوا إليه
ابنته إن أرادت أحدهم بملا ، فهو بها أولى وبشأنها
أحق . . . إنكم ضعفاء أيها الأيثاكيون الأوفياء . . .
ولو استطعتم لرددتهم عنى غائلهم . . . فاقطع
السكريل ، وحزب الشر ، وعم الأذى . . . والآن ،
أوجه إليهم قولي . . . ، ولن أستحي أن أصارحكم
مرة أخرى أيها المشاق . . . اخجلوا إذن ! ولتصبغ
الفضيلة وجناتكم بحمرة الحياء ! أذكروا ما عسى
أن يمتيركم به جيرانكم : واخشوا قارعة تحمل عليكم
من أربابكم . . . واتقوا يوم تلقونهم تودون لوتلة فتكم
الصواعق . . . يا قوم ! أستحلفكم بسيد الأبواب !
بربة المدالة ثيميس ، إلا ما تركتموني أقضى البقية
الباقية من أيامى في شقوتي وحدى ! هل أجزم أبى
مرة مع أحد منكم فأنتم اليوم تأخذوننى بجبرته ؟

(١) يلاحظ القارى أن الاجتماع كان عاما ولم يكن
قاصرا على المشاق فقط ، بل ضم جمهورا من أهل إيثاكا
كذلك

(٢) نثاشية

(٣) يدسمون

فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تذهبون تهرقون
أبديد ؟ وفيم إذن تستترقون آخر قطرة من خمرى
دون مقابل ؟ ! اذهبوا ! اذهبوا ، ودعوا تالياخوس
البائس يحز في نفسه أشجانه ، وتبرى اصطباره
بلواه : ! !
ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر بيكي ، وكأنا
انهمرت دموعه في نفوس القوم ، فوجوا وجوماً
شديداً ، ولم ينبس أحدهم بينت شفة . حتى نهض
أنثينوس آخر الأمر فقال :
« لله ديانك يا تالياخوس ! لقد كنت مصقماً
حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين قصرت
علينا كل اللوم ، حين لا ملوم إلا أمك ! لقد
خدعتنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تم
أربعمة ، إذ رسائلها تترى علينا ، تحي في نفوسنا
الآمال ، وتذكى فينا الأمانى ! لقد كانت وعودها
تترادف كالبروق الخائب ، وتترامى كالسراب
المضل ! لقد أخذت لها منسجاً وطفقت تعمل
عليه وهي تغربنا ، وتقول : « أيها الاغريق :
لقد قضى أوديسيوس ما في ذلك ريب ، وكلكم
نطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبا نيريس
رجل شبيخ ، وهو يدب بخطى وثيدة إلى حافة
القبر ، أفليس أخلق بي ولكم أن تتظروا حتى أنسج
له هذا الثوب ، لتسكون منه أكهانه ، وحتى
لا أكون مضمة في قم الاغريقيات إن تركته برغم
ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاقه » . ولقد
أجبنا سؤالها وتلبثنا طويلاً ، ترجو لو تفرغ من
نسج هذا الكفن ، بيد أنها كانت تنقض بالليل
ما تنسجه بالنهار ، وهكذا دواليك ، ظلت تخادعنا
تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى
وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعننا أن نضبطها

وهي تنقض غزلها أنكانا في ضوء المشاعل ، في جنح
الليل ، فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها ... هذه هي
الحقيقة يا قوم ! والآن ! فلترسل أمك أيها الفتى
إلى أبيها ، وليختر لها من يديننا بملا ، أو فلتختر
هي لها بملا ... أما إذا عكفت على خنلها بنا ، فلتثق
أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها
أخذت من تهرق ، أو أكس من الكينا ، أو أزع
من ميسينية^(١) ... حسها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك
يا تليماك أننا لن نرح عاكفين على ما شكوت ، من
ذبح لنعمك ، وإراغة لؤدك ، ومعاقرة لحرك ، حتى
تختار لنفسها ؟ أو ... فليمن فزع هذه الدار ،
ولينضب معين خيرها . »

وشاعت الكبرياء في كل جارحة من جوارح
تالياخوس فقال :
« أنثينوس ! ماذا أصابك ؟ كيف تسألني أن
أقهر أمي التي غدتني ونشأتني على غير ما ترصاه ؟
كيف أطردها من قصر بملها الذي لا يعلم غير الله
إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبئس ما أجزها به ، ولشد
ما أغضب أبي وأثير غضب الآلهة على إن فعلته ! !
إنها استدعو إيريس^(٢) كي تنتقم لهامي ، وستنصب
على لعنات الناس جميعاً ! ! ويحك أيها الرجل : إن
أقولها شيئاً ... بل اذهبوا أنتم فسلوها ما شئتم ؟
فأما أحابث طلبتكم ، وإلا فانصرفوا غير
مأجورين ... اذهبوا ... فأولوا ولائكم في غير
هذا القصر ، وأربفوا من زادكم ، وأنفقوا مما
تحبون ! ! أما إن رأيتم أنه أحل لكم أن تأكلوا
مال غيركم ، فاني سأهتف أبدأ بالآلهة أن تقتص لي
منكم ، فهي تحبطة بكم ! ... »

دربني ضبي

(ينبع)

(١) من ربات الفنون

ولا نصيح ، فهي تنشأ وترعرع وعلى ثغرها ابتسامة
هادئة تقابل بها كل إنسان

والفتاة اليابانية في المدرسة تدرس الأخلاق
قبل أن تدرس العلم ؛ فإذا دخلت المدرسة تراها
تنحني لأستاذها حتى تسكاد تلمس الأرض بأنفها ،
— وهذه أقصى درجة للتبجيل والا كبار في
اليابان — فيرد الأستاذ التحية بأحسن منها ، ثم
تجلس الطفلات في مقاعدهن ، ويفتحن السكتب ،
ويبدأن الدرس



درس في السكتبة

والسكتب في اليابان غريبة في كل شيء ،
فإن تنبر دهشتك في غمارة حروفها غريب ، بل
إنك إذا أردت أن تعثر على أول صفحة في السكتب
وجدتها الأخيرة فيه ؛ وإذا رغبت في قراءته
فانك تقرأ من آخره إلى أوله ، لا من أوله إلى
آخره ؛ وإذا حدثتك نفسك بتتبع كلمات سطر
من السطور ، فانك تراها تبدأ في أعلى الصفحة
وتنتهي في أسفلها ، أي أن السكتبة في اليابان لا تبدأ
من اليمين أو الشمال كما في سائر اللغات ، بل تبدأ
من أعلى إلى أسفل

وتدرس الطفلة اليابانية في المدرسة ما تدرسه
الطفلة الغربية من المواد المختلفة ، فضلاً عن أنها



من أفق إلى أفق

جولات في السكتبة

فتاة اليابان

ترجمة الأديب أحمد فتحي مري

إن كلمة « الطاعة » التي لها حظ كبير من حياة
الرجل الياباني ، هي كل حياة الفتاة اليابانية ؛ فالفتاة
اليابانية تتلقن واجباتها في سن مبكرة من الطفولة .
وفي اليابان كتاب عتيق تستظهره اليابانيات ، ولا يخلو
منه منزل ما ، اسمه « الدراسة العالية للمرأة » ، ويشمل
مجموعة من التقاليد والواجبات ، والمثل العليا
للأخلاق . وقوام هذا السكتب « الطاعة » ؛ فتراه
يقول إن على الفتاة اليابانية ثلاثة واجبات في الطاعة :
ففي مرحلتها الأولى وهي فتاة يجب أن تمثل لأوامر
والدها ، وفي مرحلتها الثانية وهي متزوجة يجب
أن تنصاع لرغبة زوجها ، وفي الثالثة وهي أرملة
يجب أن تخضع لأرادة ابنها الأكبر

تجتاز الفتاة اليابانية مرحلة الطفولة في سرور
ومرح ، بين رعاية والديها ، وعناية أهلها . وهي
دائماً هادئة الطبع ، رزينة النفس ، حتى في أمها ؛
فإذا غضبت لاتعول ولا تبكي ، وإذا فرحت لاتنضح

أوقات فراغها ، فتهذب ذوقها ، وتربى فيها روح
التنسيق ، وحسن الاختيار ، وجمال الترتيب مما
لا تستغنى عنه المرأة في حياتها المنزلية ...

وقد جرت العادة في اليابان أن يقص شعر
الطفلة بعد ولادتها بقليل ، حتى إذا بلغت الثالثة
من عمرها تما الشعر في غزارة حتى تنوس ذوائبه
على أكتافها . وترتدى الطفلة اليابانية في صغرها
ملابس الطفولة ، وهي ملابس ضيقة مختلفة الألوان ،
حتى إذا بلغت السابعة من عمرها عومت معاملة
المرأة الكاملة ، فتلبس الملابس الحريرية الواسعة ،
وتختار الألوان الزاهية ، وترتدى الثياب الفضفاضة
الموشاة بخيوط من الذهب ، أو رسوم من الزهر ،
تجمع بين تناسق الألوان وإتقان النسيج

وأبست هذه المرحلة من عمر الفتاة اليابانية
هي مرحلة التبرج والتزين لحسب ، بل لها أيضاً
أن تراود وصدقائها ، وتقضى معهن أوقات الصفو
واللهو ، وتذهب بصحبتهم إلى الهياكل والمعابد ،
حتى إذا تزوجت نبذت كل ذلك ظهرياً ، وهجرت
هذه الحياة اللاهية المرحية

فواجبات الزوجة اليابانية ، وتفانيها في خدمة
زوجها وأطفالها تشغلها عما عداها من ضروب
التسلية واللذو ؛ ولا تتحرر الزوجة من هذه
القيود إلا عندما يشب ابنها ويتزوج ، حينئذ
تلقى على زوجته تبعات المنزل ، وتطرح عن ظهرها
ذلك العبء الذي حملته زمناً طويلاً ، وهذا هو الفجر
الثاني في حياة المرأة اليابانية ، فنراها تعاود حياتها
الأولى ، وتستعيد ذكريات الشباب المرح ، فتزور
الهياكل ، وتظهر في الحفلات ، وترتاد الملاهي
والفتاة اليابانية تتزوج في سن مبكرة ، فلا تبلغ

تدرس التقاليد والأخلاق وحسن معاملة الغير
دراسة دقيقة واسعة ، فأهل اليابان لا يرون أن
الأخلاق والمعاملة والتقاليد تعتمد على الذوق
والشعور ، بل يرون أنه لا بد للطفل من دروس
طويلة في الأخلاق والتقاليد ، حتى لا يحميد عنها ،
ولا يخرج عن أصولها

فكم مرة يجب أن ينحني ؟ ... وكيف يحيي
الغريب ومواطنيه على اختلاف طبقاتهم سواء
أكانوا من عالية القوم أم من الطبقات المتوسطة ،
أو من الطبقات الدنيا ... فكل طبقة من هؤلاء
لها طابعها الخاص ، ولها تحياتها الخاصة ، ولها
تقاليدها الخاصة . ويقال إن من السهل معرفة الطبقة
التي تنتمي إليها الفتاة اليابانية من الطريقة التي تقدم
بها الشاي إلى الضيف



تقديم الشاي إلى الضيف

وفن تنسيق الزهور في اليابان من الدراسة
المنزلية التي تتلقاها الفتاة عن أمها وتقضى فيها معظم

وثيابها الجميلة وتستقبل حياة شاقة جديدة لا عهد لها بها من قبل ... وإذا كان الزوج يعيش مع والديه فإن من الشرف للعروس أن تلبى طلباتهما ، وتنصاع لرغبتهما ، وتنزل على إرادتهما ، وهما بدورها يمتطغان عليها كل المطف ، فلسنا نلصق في اليابان آنراً لذلك التنافر الذي يحدث عادة في سائر الممالك بين الأم وكنتها ، فإن الأم اليابانية التي جيت على الطاعة ، وانطيمت على الحنان وصفاء القلب لا ترى في زوجة ابها سوى ابنة ثانية لها قضى الله أن تستريح على يديها من عناء الأعمال ؛ فهي تنظر اليها دائماً نظرة الأم الشقيقة لابنتها البرة وقد بلغ من وفاء الزوجة اليابانية لزوجها أنها عادة تشوه وجهها ، وتسود أسنانها ، حتى لا تلفت نظر غيره . وعلى رغم أن هذه العادة انقرضت في اليابان ولا سيما بين الطبقات العليا التي تأثرت كثيراً بالجانب الغربي ، إلا أن المتجول في ربوع اليابان كثيراً ما يرى هؤلاء النساء ذوات الأسنان السوداء في كثير من جهاتها

وإذا فقدت اليابانية زوجها فإنها تظهر عليه حزنها العميق وأساها البالغ ، فتراها تحلق رأسها ، وترتدي الداكن من الثياب ، وتبدو في منظر كئيب حزين . والقل الياباني يشبه لنا الأرملة اليابانية بالغراب ، والزوجة اليابانية بالحمامة ، والفتاة اليابانية بطير من طيور الجنة ؟
(عن الإنجليزية) أحمد قنمى رضى

اعتماد

جاء جميع الوقت وعوادى الأشغال عن نصرته من (هيلو الجديدة) في هذا العدد ، فأرجأناه إلى العدد المقبل فخرج من قرائنا المندرة

المشرين من عمرها — دون زواج — إلا الفتاة المائرة الحظ ، وعندئذ تنقطع عن كل شيء آخر إلى خدمة زوجها ، وتتجه بكليتها إلى حياة الجسد والنشاط ، فتنبذ الثياب الزاهية الملونة ، وتماع الملابس الغضفاضة الزينة ، وترتدي ثوباً أبيض شفافاً تتجلى فيه كل معاني البساطة



البيت الياباني

ويتم الزواج في اليابان ، دون جلب ولا نفقة ، كغيرها من الأمم ، فليست هناك هذه الأفراح العامة ، ولا تلك التكاليف اللدنية ، وكل ما هنالك أن الزوج وعروسه يشتركان في شرب ثلاث كؤوس من الشراب الوطني الياباني المصنوع من الرز (الساكي) Sake فينال كل منهما رشفة من كل كأس ، ويمتبر اشتراكهما في شرب هذه الكؤوس بمثابة بدء اقتسامها حياتهما المقبلة وهنا يجب على العروس أن تودع أيامها السعيدة